مختارات من كتاب الإمتاع والمؤانسة

مختارات من كتاب الإمتاع والمؤانسة

أبو حيان التوحيدي

اختارها وقدم لها: أحمد رجب

الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com
E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

التوحيدي، أبو حيان. – اختارها وقدم لها: أحمد رجب – مختارات من كتاب الإمتاع والمؤانسة

– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢

١٤٤ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٨ – ٨ – ٨٦٢٥٢ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع: ١٩٤٥٦ / ٢٠٢٢

مختارات من كتاب الإمتاع والمؤانسة

أبو حيان التوحيدي

اختارها وقدم لها

أحمد رجب

تقديم

"كان مُتَفَنِّنًا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام، وكان جاحظيًا، يسلُك في تصانيفه مسلك الجاحظ، ويشتهي أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق أهل الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، فَرْدُ هذه الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفِطنة، وفصاحة ومُكْنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن، حُفَظَةُ واسع الرواية والدراية".

تلك الكلمات دبجها"ياقوت الحموي"في كتابه "معجم الأدباء" تعريفا بأبي حيان التوحيدي، فهو أحد أبرز الأعلام في تاريخ الثقافة والعربية، اسمه علي بن محمد بن العباس، كنيته أبو حيان، ولقبه التوحيدي، وقد غلب عليه هذا اللقب لأن أباه كان يبيع نوعًا من التمر في العراق يقال له «التوحيد»، ويُحتمل أن يكون اللقب نسبة إلى التوحيد وهو الدين والعقيدة، لأن المعتزلة كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد.

مولده وعصره

عاش أبو حيان منذ ألف عام في القرن الرابع الهجري، ولا يُعرف على وجه الدقة تاريخُ مولده، ومدة حياته، وهو شأن كثير من أعلام ذلك الزمان، لكنه عاش على الأرجح بين عامي ٣١١ هـ و٤١٤هـ، ونَيَّفَ عمره على التسعين، وقد يكون تجاوز القرن.

وعلى الرغم من أن هذا العصر كان عصر ضعف وانهيار من الناحية

السياسية، فقد فسدت فيه أحوال الدولة العباسية ولم تبق لهم كلمة مسموعة، ولا قوة نافذة ولا كيان يرتجى معه البقاء، فاستولى البُوَيْهِيُّون على بغداد، وتمزقت البلاد إلى ممالك ودويلات صغيرة، وكثر القتل في الخلفاء. على الرغم من ذلك كله فقد أبقت الأمة على قوتها المفكرة؛ فنشطت الحياة الأدبية والثقافية في ذلك العصر وازدهرت أيما ازدهار، ونشأت في ظل الممالك المتخبطة المتناحرة زمرة صالحة من العلماء والأدباء بقوة التسلسل المنبعثة من القرن الثالث الهجري، كانوا أحرص الناس على العلم والمعرفة.

نشأ أبو حيان في هذه الأجواء فقيرًا، فمارس مهنة «الوراقة» أو النسخ في بغداد مدة طويلة، تلك المهنة التي مكّنته من اكتساب زاد عظيم من العلم والمعرفة، لما تقتضيه من كثرة القراءة وطول مصاحبة الكتب. فاتسعت ثقافته التي التقطها من بطون تلك الكتب والتي أخذها كذلك من أفواه رجال العلم، فأخذ النحو عن أبي سعيد السيرافي، وعلي بن عيسى الرماني، وهما من هما بين أعلام ذلك الزمان، وأخذ الفقه الشافعي عن أبي حامد المَرْورُوذي، وقد تعلّق به أبو حيان تعلقًا شديدًا، وذكر سر هذا التعلق في «البصائر والذخائر» فقال: «لأنه أنبل من شاهدته في عمري، وكان بحرًا يتدفق حفظًا للسير، وقيامًا بالأخبار، واستنباطًا للمعاني، وثباتًا على الجدل، وصبرًا في الخصام»، ودرس الحكمة والفلسفة والمنطق على أبي سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، كما تتلمذ على كتب من لم يتمكن من رؤيتهم من العلماء، وعلى رأسهم أستاذه الجاحظ، الذي وجد فيه بغيته، يقول: «أنا اللهجُ – أيدك الله – بكلام أبي عثمان ولي فيه شركاء، من أفاضل الناس، فلا تنكر روايتي لكلامه، فإن فيه شفاء وبه تأدب ومعرفة».

مؤلفاته وأسلوبه

جاءت مؤلفات أبي حيان انعكاسًا لطبيعة تكوينه الفذّ، ولثقافته العميقة الواسعة، فقد صنف كتبًا ورسائل كثيرة؛ حتى عُد من أفراد عصره الذين اشتهروا بكثرة التأليف في فنون شتى من المعرفة، وكان له أسلوب ينسج فيه على منوال الجاحظ، جمع البلاغة والفصاحة ونصاعة البيان وفحولة الألفاظ وثراء المعاني، وكثر فيه إيراد النوادر والملح والفكاهة، حتى لتطرب له نفس القارئ أشد الطرب، وله عدة كتب مطبوعة منها «الامتاع والمؤانسة»، وهو مصدر ثمين لمعرفة تراث أبي حيان والوقوف على طبيعة الحياة الفكرية والاجتماعية في عصره. وهو أنفع كتب أبي حيان وأمتعها، ولعل من أبلغ ما قيل في وصف هذا الكتاب عبارة القفطي في «تاريخ الحكماء»: «هو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم، فإنه خاض كل بحر، وغاص كل لُجَّة».

والكتاب مؤلف من عدة مسامرات في فنون شتى، حاضرَ بها التوحيديُّ الوزيرَ أبا عبد الله العارض، في أربعين ليلة على غرار «ألف لية وليلة»، غير أن موضوعات أبي حيان كانت واقعية وصحيحة إلى حد كبير. ومن نافلة القول أن هذا الكتاب انفرد بإيراد وثيقتين مهمتين: أولاهما النص الذي كشف لنا مؤلفه «رسائل إخوان الصفا»، والثانية تلك المحاورة الممتعة التي دارت بينه وبين أبي سعيد السيرافي ومَتَّى بن يونس القنائي حول المفاضلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني. وفيه كذلك وصف تاريخي دقيق لحوادث خطيرة جرت في بغداد والموصل والكوفة.

ومن كتبه كذلك «البصائر والذخائر»، ليس له منهج موضوعي جامع، ولذا جاء حشدًا عجيبًا من المعارف والحكم، ففيه مسائل في اللغة والتصوف والنوادر والتاريخ والشعر والحكمة والفكاهة والمجون. وقد ذكر أبو حيان أنه جمعه في خمسة عشر عامًا مما سمع وقرأ. وقد أثبت في مقدمته المصادر التي قرأها واستمد منها مادته، وفي صدارتها كتب الجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب النوادر لابن زياد، ومجالس ثعلب وأوراق الصولي وجوابات قدامة وغيرها.

وله كذلك كتاب «المقابسات» الذي يحتوي على ١٠٦ مقابسات أو محاورات بين العلماء، مختلفة الطول، تبحث كل واحدة منها في موضوع مستقل، من موضوعات الفلسفة والأخلاق والإلهيات والطبيعة وقضايا النفس الإنسانية. وقد جاءت في قالب أدبي تكثر فيه الملح والنوادر. وله كذلك كتاب «الهوامل والشوامل» وهو يتألف من أسئلة في موضوعات أدبية واجتماعية وفلسفية وأخلاقية ونفسية ولغوية وجهها أبو حيان إلى مسكويه فأجاب عنها، وهو يدلنا على ما كان يشغل ذهن العلماء في ذلك العصر من قضايا المعرفة، وبخاصة المعرفة اليونانية، التي صبغت بالصبغة العربية الإسلامية.

ومن كتبه الذائعة «أخلاق الوزيرين»، وقد تعددت أسماء هذا الكتاب فهو «مثالب الوزيرين» و«ذم الوزيرين» و«أخلاق الوزيرين». ألفه بأثر من الخصومة مع الوزيرين ابن العميد والصاحب ابن عباد، وهو تحفة أدبية ثمينة، يهجو فيه الوزيرين ويصف أحوالهما وأخلاقهما، مع التحامل عليهما والغض من شأنهما وبخاصة ابن عباد، حتى لقد عد هذا الكتاب أهجى ما أثر من النثر العربي على الإطلاق.

ومن كتب أبي حيان كذلك «الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية» وهو كتاب في التصوف، ضمنه أبو حيان خلاصة تجاربه الروحية، ويغلب على أسلوبه الرمز والغموض والإشارات والألغاز، وقد وصفه عبد الرحمن بدوي بقوله: «إن الكتاب يعبر عن نفس دلفت إلى الإيمان المستسلم بعد أن عانت من تجارب الحياة أهوالًا طوالًا». وارتفع أسلوبه فيه إلى درجة لم يبلغها أحد من المتصوفة من قبل.

وله من الكتب والرسائل أيضًا «الصداقة والصديق»، و«رسالة في علم الكتابة» وهي بحث صغير كتبه التوحيدي الذي مارس مهنة الوراقة ردحًا طويلًا من الزمن، تحدث فيه عن الكتابة وأنواع الخطوط العربية وأنواع الأقلام، ومعاني الخط وغيرها. و «رسالة في ثمرات العلوم»، و«رسالة الحياة».

وقد أجمع كل من كَتَب عن التوحيدي أنه كان رجلًا شديد البؤس والشقاء والفقر، وأن حياته كانت ضنكًا وتعبًا، لكن ذلك لم يجعل منه خامل الفكر ولا عديم السيرة والأثر، بل إن ذلك صنع منه رجلًا صاحب علم وأدب وثقافة، بما يمكننا اعتباره أحد الشموس الكبرى التي استنارت بها الحياة العربية والإسلامية، ليصبح من أهم أئمة اللغة والبيان الذين يشار إليهم وإلى كتبهم بالبنان.

الإمتاع والمؤانسة

وقد آلينا على أنفسنا أن نضطلع بتقديم بعض آثار هذا المفكر الموسوعي نادر المثال، فاخترنا من كتابه "الإمتاع والمؤانسة" مختارات تتيح لمن لا يعرف الرجل أن يطلع على أسلوبه وطريقة كتابته وتفكيره، وأن يتذوق

أدبه وينهل من علمه، آملين أن تكون تلك المختارات دعوة لمطالعة كل آثار العلم الموسوعي الذي يعتبر درة تراثية نادرة المثال.

فكرة الكتاب

كان أبو الوفا المهندس صديقًا مشتركًا للتوحيدي والوزير أبي عبد الله العارض، فقام أبو الوفا بذكر التوحيدي في حضرة الوزير، ومدحه بما يستحقه من مكانة، فجعل الوزيرُ التوحيديَّ من المقربين منه، على أن يسامره بما لديه من علم وأدب وثقافة، فحادثه التوحيدي ما يقارب سبعة وثلاثين ليلة، كان نتاجها ما جُمع فيما بعد في كتاب «الإمتاع والمؤانسة».

على أن الفضل في وجود هذا الكتاب الذي يعتبر من أهم ما كُتب في الثقافة العربية والحضارة الإسلامية، إنما يرجع إلى الوزير أبي عبد الله العارض وأبو الوفا المهندس؛ وذلك لأن كل ما دار في الإمتاع من نقاشات وأسئلة إنما مبدؤها كان من الوزير، حيث كان يقوم كل ليلة بطرح سؤال ما على التوحيدي، فكان يجاوبه بما عرفه أو قرأه عن السابقين، أو بما تجود به قريحته، وفي مراتٍ كثيرة كان يعارضه الوزير ويختلف معه، ويتشعب الحديث بينهما بعيدًا عما اتفقا عليه، وفي ذلك إشارة بليغة لوجود من كانوا في سدة الحكم في عصر التوحيدي ولهم اهتمام بالثقافة والعلم، وليس فقط بأمور السياسة وشئون الدولة.

أما أبو الوفا المهندس، فغير ما يُحسب له من تقريب التوحيدي للوزير، كان قد طلب من التوحيدي أن «يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث، وذكَّره بنعمته في وصله بالوزير، وهدده إن لم يفعل أن يغض عنه،

ويستوحش منه، ويوقع به عقوبته، وينزل الأذى به». والنقطة الأخرى التي طالب بها أبو الوفا المهندس، فكانت أن «نصحه بأن يتوخى الحق في تضاعيفه وأثنائه، والعدل في إيراده، وأن يطنب فيما يستوجب الإطناب، ويُصرح في موضع التصريح، فكان من ذلك كتاب الإمتاع والمؤانسة».

محتوى الكتاب

وموضوعات الكتاب متنوعة لا تخضع لترتيب ولا تبويب، وإنما تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث، حتى لنجد في الكتاب مسائل من كل علم وفن، فأدب وفلسفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر وأدبائه وعلمائه وتصوير للعادات وأحاديث المجالس، وغير ذلك مما يطول شرحه.

فالكتاب ممتع مؤنس كاسمه، يلقي نورًا كثيرًا على العراق في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، إنه يتعرض لكثير من الشئون الاجتماعية في ثنايا حديثه، فيصف الأمراء والوزراء ومجالسهم كابن عباد وابن العميد وابن سعدان، ومحاسنهم ومساوئهم، ويصف العلماء، ويحلل شخصياتهم وما كان يدور في مجالسهم من حديث وجدال وخصومة وشراب، ويصف النزاع بين المناطقة والنحويين، كالمناظرة الممتعة التي جرت بين أبي سعيد السيرافي ومتَّى بن يونس القُنائي في المفاضلة بين المنطق اليوناني والنحو العربي، ورأي العلماء في الشعوبية والمفاضلة بين الأمم.

والكتاب به ليالي كاملة هي المتعة الخالصة والمؤانسة للروح، مثل الليلة التي جرت فيها المناظرة بين أبي سعيد السيرافي النحوي ومتى بن يونس المنطقي، عن الفرق بين النحو العربي والمنطق اليوناني وكيف ناظر النحوي وأفحم المنطقي بحجج بالغة وشديدة الإقناع ولم يستطع المنطقي أن يجاريه في مناظرته، والليلة الأخرى التي جرت فيها المفاضلة بين الأمم ومكانة العرب والدفاع عنها وعن لغتها بين بقية الأمم، وكذلك الليلة التي جرت فيها الجدال بين علم الحساب وعلم الكتابة، وأيهما أقوى وأهم للدولة.

ثم إن الكتاب فيه ليالٍ شديدة التخصص والفلسفة مثلما جرى الحديث عن النفس والروح، والجزئي والكلي، وأيضًا التفرقة بين الدين والفلسفة ومكانة النبي المفارقة للفيلسوف، وعلى النقيض تمامًا كانت ليلة كاملة عن المجون والخلاعة، والسبب أن الإنسان يمل أحيانًا ومحبوب أن يروح عن نفسه بتلك الأحاديث، وكذلك جرى الكلام عن الحيوان كثيرًا وأوجه الشبه بين الإنسان وبينه، وما اكتسبه الإنسان من الحيوان من طباع أو صفات قد تعينه

على الحياة، وكذلك ليالي شديدة الفكاهة والضحك، كتلك الليلة التي دارت حول الشبع والطعام، وما قاله القوم عن حد الشبع من الأكل ومقياسه.

والتوحيدي في كتابه لا يتوانى عن أن ينقل عن السابقين عليه ما يثبت قوله أو يدعم إجابته، أيًّا ما كانوا وأيًّا ما كانت تياراتهم الفكرية أو اعتقادهم الديني، فنجد عشرات إن لم يكن مئات من أسماء الفلاسفة اليونانيين، بمقولاتهم وأفكارهم.

ومن الملامح الموجودة في الكتاب منهجه الإصلاحي أحيانًا، في فلسفة الأخلاق أو فلسفة سياسة الحكم، ذلك لأن التوحيدي لم يكن فقط ناقلًا لثقافة عصره وما يقوله المعاصرون له في الثقافة والأدب لينقله إلى الوزير، وإنما كان يوجه الوزير في بعض الأحيان – حدثت مرتين – حين أخبره عما يدور في الأسواق من الرعية وما يقولونه عن الوزير والدولة، فسمع الوزير منه، وقدَّم إصلاحات سياسية بناء على ما نقله التوحيدي وما نصحه به.

وأخيرا نضع المختارات بين يدي قارئنا العزيز.

أحمد رجب

الجزء الأول

الليلة الأولى

وصلتُ أيها الشيخ – أطال الله حياتك – أول ليلة إلى مجلس الوزير أعز الله نصره، وشدَّ بالعصمة والتوفيق أَزْرَه فأمرني بالجلوس، وبسط لي وجهه الذي ما اعتراه منذ خُلِق العبوس، ولطَّف كلامه الذي ما تبدَّل منذ كان لا في الهَزْل ولا في الجِدِّ، ولا في الغضب ولا في الرضا. ثم قال بلسانه الذَّلِيق، ولفظه الأنيق: قد سألتُ عنك مراتٍ شيخنا أبا الوفاء، فذكر أنك مُراعٍ لأمر البِيمَارِسْتان من جهته، وأنا أَرْبَأ بك عن ذلك، ولعلي أعرِّضك لشيء أنْبَه من هذا وأَجدَى، ولذلك فقد تاقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتأنيس، ولأتعرَّف منك أشياء كثيرةً مختلفة تَرَدَّد في نفسي على مَرِّ الزمان لا أحصيها لك في هذا الوقت، لكني أَنْثُرها في المجلس بعد المجلس على قدر ما يَسْنح ويَعرِض، فأجبني عن ذلك كلِّه باسترسال وسكون بال، بملء فيك، وجَمِّ خاطرك، وحاضر علمك.

فقلت: أيها الوزير، قد خالطتُ العلماء، وخدمت الكبراء، وتصفَّحتُ أحوال الناس في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم، فما سمعتُ هذا المعنى من أحد على هذه السِّيَاقة الحسنة والحجة الشافية والبلاغ المبين، وقد قال بعض السلف الصالح: «ما تَعاظَم أحد على مَن دونه إلا بقدر ما تَصاغَر لمَن فوقه.» والتصاغر دواء النفس، وسجية أهل البصيرة في الدنيا والدين، ولذلك قال ابن السَّمَّاك للرشيد وقد عجِب من رقته، وحسن إصاخته لموعظته، وبليغ قبوله لقوله، وسرعة دمعته على وجنته: «يا أمير المؤمنين،

لَتواضعُك في شرفك أشرفُ من شرفك، وإني أظن أن دمعتك هذه قد أطفأتْ أوديةً من النار وجعلتْها بردًا وسلامًا.»

قال: هذا باب مفترَقٌ فيه، ورجَعْنا إلى الحديث فإنه شهي، سيَّما إذا كان من خطرات العقل، قد خُدِم بالصواب في نغمةٍ ناغمة، وحروف متقاومة، ولفظٍ عذب، ومأخذٍ سهل، ومعرفة بالوصل والقطع، ووفاء بالنثر والسَّجع، وتباعدٍ من التكلف الجافي، وتقاربٍ في التلطف الخافي، وكنتُ أنشد أيام الصبا هذا بالذال، وكان ذلك من سوء تلقين المعلم، وبالعراق رُدَّ عليَّ وقيل: هو بالزاي.

قلتُ: ولهذا قال خالد بن صفوان حين قيل له: أتَمَلُّ الحديث؟ قال: إنَّما يُمَلُّ العتيق. والحديث معشوق الحس بمعونة العقل، ولهذا يُولَع به الصبيان والنساء.

فقال: وأي معونة لهؤلاء من العقل ولا عقل لهم؟

قلتُ: ها هنا عقلٌ بالقوة وعقلٌ بالفعل، ولهم أحدهما وهو العقل بالقوة، وها هنا عقلٌ متوسط بين القوة والفعل مُزْمِع، فإذا برز فهو بالفعل، ثم إذا استمر العقل بلغ الأفق. ولفرط الحاجة إلى الحديث ما وُضِع فيه الباطل، وخُلِط بالمُحال، ووُصِل بما يُعجِب ويُضحِك، ولا يؤول إلى تحصيل وتحقيق، والحس شديد اللَّهَج بالحادث والمُحْدَث والحديث، لأنه قريب العهد بالكون، وله نصيب من الطَّرَافة، ولهذا قال بعض السلف: «حادثوا هذه النفوس فإنها سريعة الدُّثُور»، كأنه أراد اصْقُلوها واجلُوا الصدأ عنها، وأعيدوها قابلةً لودائع الخير، فإنها إذا دَثَرت أي صَدِئت، أي تغطَّت، ومنه الدِّثار الذي

فوق الشعار لم يُنتفَع بها. والتعجب كله منوطٌ بالحادث، وأما التعظيم والإجلال فهما لكل ما قَدُم إما بالزمان وإما بالدهر، ومثال ما يقدُم بالزمان الذهب والياقوت وما شابههما من الجواهر التي بَعُد العهد بمبادئها، وسيمتد العهد جدًّا إلى نهاياتها، وأما ما قدُم بالدهر فكالعقل والنفس والطبيعة.

* * *

الليلة الثانية

ثم حضرتُ ليلة أخرى، فقال: أول ما أسألك عنه حديث أبي سليمان المنطقيّ كيف كان كلامه فينا؟ وكيف كان رضاه عنا ورجاؤه بنا؟ فقد بلغني أنك جارُه ومُعاشِرُه، ولصيقه ومُلازِمُه، وقافي خطوِه وأثرِه، وحافظ غاية خبره.

فقلتُ: والله أيها الوزير ما أعرف اليوم ببغداد إنسانًا أشكَرَ لك، وأحسنَ ثناءً عليك، منه. وقد عمل رسالةً في وصفك ذكر فيها ما آتاك الله وفضَّلك به من شرف أعراقك، وكرم أخلاقك، وعلوِّ همتك، وصدق حدسك، وصواب رأيك، وبركة نظرك، وظهور غَنائك، وخِصب فِنائك، ومحبة أوليائك، وكمَد أعدائك، وصَباحة وجهك، وفصاحة لسانك، ونُبْل حَسَبك، وطهارة غيبك، ويُمْن نقيبتك، ومحمود شيمتك، ودقيق ما أودع الله فيك، وجليل ما نشر الله عنك، وغريب ما يُرَى منك، وبديع ما يُنتَظر لك من المراتب العليَّة، والخيرات الواسعة، والدولة الوادعة، وهي تصل إلى مجلسكم في غد أو بعده إن شاء الله. وكان هذا منه قيامًا بالواجب، فإنك نَعَشْت روحه وكان خَفَت، وبصَّرتَه وكان عَشِي، وأنبتَّ جناحه وكان قد حُصَّ بالرسم الذي وصل إليه، لأنه كان قَنِط منه وهو قَنُوطٌ.

فقال: سررتَني لسروره بما كان مني، وإن عشتُ كففتُ الزمان عن ضيمه، وفَلَلْتُ عنه حدَّ نابه. ولولا الضَّمانة مانعةٌ عن نفسه، ومُتَمنّع معها بنفسه؛ لغَشِي هذا المجلس فيكم فاستأنس وآنس، فرويتُ:

أبو سليمان عالِمٌ فَطِن ... ما هو في عِلمِه بمنتقَصِ

لـكـنْ تـطـيَّرتُ عـنــد رؤيـتــه　　　من عَوَرٍ مُوحِش ومن بَـرَصِ
وبابـــنِــه مِــثــلُ مــا بــوالــده　　　وهـذه قصـــــة من القصـــــصِ

فقال: قاتله الله! فلقد أَوجَع وبالَغ، ولم يحفظ ذِمام العلم، ولم يقضِ حق الفتوة.

* * *

الليلة الثالثة

قال لي ليلة أخرى: حدَّثني أبو الوفاء عنك حديث الخراساني، فأريد أن أسمعه منك. قلتُ: كنتُ قائمًا عشية على الجسر في الجانب الشرقي والحاجُّ يدخلون، وجِمالُهم قد سدت عرض الجسر، أنتظر جوازَها وخفَّة الطريق منها، فرأيت شيخًا من أهل خراسان واقفًا خلف الجمال يسوقها ويحفظ الرحال التي عليها، حتى نظر إلى الجانب الغربي فرأى الجذع عليه ابنُ بقية وكان وزيرًا صلبه الملك لذنوب كانت له فقال: لا إله إلا الله، ما أعجب أمور الدنيا وما أقلَّ المفكِّر في عِبَرها وغِيَرها! عضد الدولة تحت الأرض وعدوُّه فوق الأرض!

قلتُ: هكذا حدَّثني أبو الوفاء، ولذلك استأذنتُ في دفنه، وكان كلام الشيخ سببًا في ذلك.

قال: بلغني أن أبا سليمان يزور في أيام الجمعة رسل سجستان لَمَّا ويظل عندهم طاعمًا ناعمًا، ويأنس بأنك معه، فمن يحضر ذلك المكان؟

فقلت: جماعة، وآخِر من كان في هذا الأسبوع الماضي ابن جَبَلة الكاتب، وابن برمويه، وابن الناظر أبو منصور وأخوه، وأبو سليمان، وبندار المغنِّي، وغزال الراقص، وعَلَم وراء الستارة.

فقال: ما الذي حفظتَ من حديث عنهم، وما يجوز أن يُلْقَى إلينا منهم؟

فقلتُ: سمعتُ أشياء، ولستُ أحب أن أَسِم نفسي بنقل الحديث وإعادة الأحوال فأكون غامزًا وساعيًا ومفسدًا.

قال: معاذ الله من هذا! إنما تدل على رشد وخير، وتُضِلُّ عن غيٍّ وسوء، وهذا يَلزم كلَّ من آثر الصلاح الخاصَّ والعامَّ لنفسه وللناس، واعتقد الشفقة، وحَثَّ على قبول النصيحة. والنبيﷺ قد سمع مثل هذا وسأل عنه، وكذلك الخلفاء بعده، وكلُّ أحد محتاج إلى معرفة الأحوال إذا رجع إلى مرتبة عاليةٍ أو محطوطة.

فقلتُ: وجدتُ ابن برمويه يذكر أشياء هي متعلقة بجانبك، ويرى أنها لو لم تكن لكان مجلسُك أشرف، ودولتك أعزَّ، وأيَّامك أَدْوَم، ووليُّك أحمد، وعدوُّك أكمد. قال: ما هذا الاسترسال كلُّه إلى ابن شاهويه؟ وما هذا الكَلَف ببهرام؟ وما هذا التعصُّب لابن مكيخا؟ وما هذا السكون إلى ابن طاهر؟ وما هذا التعويل على ابن عبدان؟ وما من هؤلاء أحد إلَّا يَرِيش عدوَّه ويَبْريه، ويُضِلُّ صاحبه ويُغْويه. أما ابن شاهويه فشيخُ إزراء، وصاحب مَخْرَقة وكذبٍ ظاهر، كثيرُ الإيهام، شديدُ التمويه، لا يرجع إلى وُدٍّ صادق، ولا إلى عَقد صحيح وعهدٍ محفوظ. وإنما كان الماضي يقرّبه لغرض كان له فيه من جهة هؤلاء المخرِّبين القرامطة، وكان أيضًا مذموم الهيئة، فكان لا يَنْبس إلَّا بما يقوِّيه ويحرس حاله، واليوم هو رَخِيُّ اللَّبَب، جاذب لكلِّ سبب، وليس هناك كفاية ولا صيانة، ولا ديانة ولا مروءة. وبعد، فهو مشئوم نَكِد، ثقيل الرُّوح، شديد البُهْت، قوله الإفساد، وعادته تأجيل المَهْنَأ، والشَّمَاتة بالعاثر، والتشفي من المنكوب.

وأمَّا بَهْرَام فرجل مجوسي معجَب ذميم، لا يعرف الوفاء ولا يرجع إلى حفاظ، غرضه أن يتبجَّح في الدنيا بجاهه، ولا يبالي أين صار بعاقبته، وهو يَحُضُّ مع ذلك عليه في كل ما هو مديره ومدبِّره.

وأما ابن مكيخا فرجل نصرانيٌّ أرعنُ خسيس، ما جاء يومًا بخير قطُّ لا في رأي ولا في عمل ولا في توسُّط، وأصحابنا يلقِّبونه بقَفَا، وهو «منهمك بين اللذائذ»، همُّه أن يتحسَّى دَنَّ الشراب في نفَس أو نفَسين، ثم يسقط كالجِذع اليابس لا لسان ولا إنسان.

وأما ابن طاهر فرجل يدَّعي للناس أنه لولا مكانته وكفايته وحسَبُه ورأيه ومشورته لكانت هذه الوزارة سرابًا، وهذه المملكة خرابًا، هذا مع الشر الذي في طبعه وعادته. فإن جرى خيرٌ انتَحَله وزعم أنه من نتائج رأيه، وإن وقع شرٌّ عصبه برأس صاحبه وادَّعى أنه استبدَّ به، ومع هذا فهو يعيب هذه المُراءاة. وما أدري كيف استكفَى هذه الجماعة حوله؟ وكيف يُظاهَر هو بها ويسكن إليها؟ وما فيهم إلَّا من وَكْدُه الرجس والإفساد والأخْذُ بالمصانَعة وإغراء الأولياء بما يعود بالوبال على البريء والسقيم وعلى الزكيِّ والظَّنين. هؤلاء سباع ضارية، وكلاب عاوية، وعقارب لسَّاعة، وأفاعٍ نهَّاشة، وقى الله هذا الإنسان الحرَّ المباركَ الكريمَ الرحيم! فإنه شريف النفس طاهر الطَّوِيَّة ليِّنُ العريكة، كثيرُ الديانة، وهذه أخلاق لا تصلح اليوم مع الناس.

ما سمع الوزير هذا كله قال: سألقي إليك في جواب هذه المسألة ما تخدمني به إن لاقيتَهم في مجلس آخر على وجه يُخفِي أنك له ملقَّن مُحَمَّل كأنك ساهٍ عنه غيرُ حافل به. وقد تقطَّع الليل، ويُحتاج في هذا الحديث إلى استئناف زمان بعد استيفاء جِمام.

ثم أنشدتُ قول الشاعر:

"إني لأصفح عن قومي وألبَسُهم على الضغائن حتى تبرأ المِئَرُ"

ثم قال: ما المئر؟ قلت: هي الضغائن التي ذكرها في حشو البيت، واحدها مِئْرَةٌ. كأنه أراد: وألبَسُهم على الضغائن [حتى تبرأ الضغائن] فرجع من لفظ إلى لفظ ضرورةَ القافية لمَّا كان معناهما واحدًا.

قال: لمن هذا البيت؟ قلت: لا أحفظ اسم شاعره، ولكن أحفظ معه أبياتًا. قال: هاتها. فأنشدتُ أول ذلك:

"يا أيُّها الرجل المُزْجِي أذيَّته هل أنت عن قولك العوراءَ مزدجِرُ؟"

"إني إذا عُدَّ مِبْطاءٌ إلى أمد لا يستطيع حِضاري المقرف البَطِرُ"

"لاقى قناتيَ مِصْرارًا عَشَوْزَنَةً لا قادح قد تبغَّاها ولا خوَرُ"

"إنِّي لأصفح عن قومي وألبَسُهم على الضغائن حتى تبرأ المِئَرُ"

قال: اكتبها. قلت: أفعلُ، وانصرفتُ. فما أعاد عليَّ بعد ذلك شيئًا مما كان.

* * *

الليلة الرابعة

قال لي بعد ذلك في ليلة أخرى: كيف رضاك عن أبي الوفاء؟

قلت: أرضى رضًا بأتمّ شكر وأحمدِ ثناء. أخذ بيدي، ونظر في معاشي، ونشَّطني وبشَّرني، ورعى عهدي، ثم ختم هذا كلَّه بالنعمة الكبرى، وقلَّدني بها القلادة الحسنى، وشملني بهذه الخدمة، وأذاقني حلاوة هذه المزيَّة، وأَوْجَهَني عند نظرائي.

ثم قال: غالب ظني أن نصرًا غلام خواشاذه ما هرب من فِنائي إلا برأيك وتجسيرك، فإن ذلك عبد ولا جُرأة له على مثل هذا النُّدود والشذوذ، فقد قال لي القائل إنك من خُلْصانه.

فقلت: والله الذي لا إله إلا هو ما كان بيني وبينه ما يقتضي هذا الأنس وهذا الاسترسال، إنما كنا نلتقي على باب الجسر بالعشايا وعند البيمارِستان وعلى باب أبي الوفاء. وإنما ركنت إليه عندما كنت رأيتُه عند صاحبه بالرَّيِّ سنة تسع وستين وهو متوجِّه إلى قابوس بجرجان في المذلَّة الدائمة والحال المربوطة، ولو نَبَس لي بحرف من هذا أو كنت أشعر بأقل شيء منه، لكنت أقوله لأبي الوفاء قضاءً لحقِّه، ووفاءً بما له في عنقي من مِنَنه، وخوفًا من هذا الظن بي، وقصورًا عن اللائمة لي.

قال: أفما تعرف أحدًا تسأله عنه ممن كان يخالطه ويباسطه؟ قلت: ما رأيته إلا وحده، وكم كان زمان التلاقي؟ كان أقل من شهر، أفي هذا القدر يتوكَّد الأنس، وترتفع الحشمة، وتستحكم الثقة، ويقع الاسترسال والتشاور؟ هذا بعيد.

قال: هذا المتخلِّف كنتُ قد قرَّبتُه ورتَّبتُه، ووعدته ومنَّيته، وتقدمتُ إلى أبي الوفاء بالإقبال عليه، والإحسان إليه، وإذكاري بأمره في الوقت بعد الوقت حتى أزيده نباهة وتقديمًا، فترك هذا كلَّه وطوى الأرضَ كأنه هارب من حبس، أو خائف من عذاب، ويقال في الأثر: إن بعض الصفيحيِّين قال: لله قوم يُقادون إلى الجنة بالسلاسل. ما أكثر من يفر من هذه الكرامة، ويقوى على الهوان، ويصبر على البلاء، ويقلَق في العافية! إن السجايا لمختلفة وإن الطباع لمتعادية. قلَّما يُرى شخصان يتشاكلان في الظاهر إلا يتباينان في الباطن.

قلت: كذلك هو.

وقال: كان ابن المقفَّع يَقِفُ قلمُه كثيرًا، فقيل له في ذلك، فقال: إن الكلام يزدحم في صدري فيَقِفُ قلمي لأتخيَّره. والكتاب يُتصفَّح أكثر من تصفُّح الخطاب، لأن الكاتب مختار والمخاطِب٩٥ مضطر. ومن يَرِدُ عليه كتابك فليس يعلم أسرعتَ فيه أم أبطأت، وإنما ينظر أصبتَ فيه أم أخطأت، وأحسنتَ أم أسأت، فإبطاؤك غيرُ إصابتك، كما أن إسراعك غير مُعَفٍّ على غلطك.

قال: هذا كله مفيد، فأين هو مِن غيره من أصحابنا؟ قلتُ: في الجملة هو أبلغ من ابن يوسف، وأغزَرُ وأحفَظُ وأَرْوَى، وأَجَمُّ رَكِيَّة، وأعذَبُ مَوْرِدًا، وأبعَدُ من التفاوت. وليس ابن يوسف من ابن عبَّاد في شيء.

فأما ابن العميد فإني سمعت ابن الجَمَل يقول: سمعت ابن ثوابة يقول: أول من أفسد الكلام أبو الفضل، لأنه تَخَيَّل مذهب الجاحظ وظَن أنه إن

تَبِعه لَحِقه، وإن تلاه أدركه، فوقع بعيدًا من الجاحظ قريبًا من نفسه. ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبَّر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان، ولا تجتمع في صدر كل أحد: بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق٩٨ والمنافسة والبلوغ، وهذه مفاتحُ قلَّما يملكها واحد، وسواها مغالقُ قلَّما ينفكُّ منها واحد. وأما ابنُه ذو الكفايتَين، فلو عاش كان أبلغ من أبيه، كما كان أشعَر منه. ولقد تشبَّه بالجاحظ فافتُضِح في مكاتبته لإخوانه، ومجَانَته في كلامه ومسائلِه لمعلِّمه، التي دلَّتنا على سرقته وغارته، وسوء تأتِّيه في تستُّره وتَغطِّيه، ومن شاء حَمَّقَ نفسه. وكان مع هذا أشدَّ الناس ادِّعاءً لكل غريبة، وأبعَدَ الناس من كل قريبة. وهو نَزْر المعاني، شديدُ الكَلَف باللفظ. وكان أحسَدَ الناس لمن خطَّ بالقلم، أو بَلُغ باللسان، أو فَلَج في المناظرة، أو َكِه بالنادرة، أو أغرَب في جواب، أو اتَّسع في خطاب. ولقد لقي الناسُ منه الدواهي لهذه الأخلاق الخبيثة. وقد ذكرتُ ذلك في الرسالة، وإذا بُيِّضتْ وقفتَ عليها من أولها إلى آخرها إن شاء الله. وانصرفتُ.

* * *

الليلة الخامسة

قال لي ليلة أخرى: ألا تتمّم ما كنا به بدأْنا؟

قلت: بلى. فأما أبو إسحاق فإنَّه أَحَبُّ الناس للطريقة المستقيمة، وأمضاهم على المَحَجَّة الوسطى. وإنما يُنْقَم عليه قلة نصيبه من النحو، وليس ابن عباد في النحو بذاك، ولا كان أيضًا ابن العميد إلا ضعيفًا، وكان يذهب عنه الشيء اليسير. وأبو إسحاق معانيه فلسفية، وطباعه عراقية، وعادته محمودة، لا يَثِب ولا يَرْسُب، ولا يَكِلُّ ولا يَكْهَم، ولا يَلتفت وهو متوجِّه، ولا يتوجَّه وهو ملتفِت. وقال لنا: إمامي ابنُ عبدكان، وهو قد أوْفَى عليه، وإن كان احتذى على مثاله، وفنونُه أكثر، ومأخذُه أخفَى، وخاطرُه أَوْقَد، وناظِرُه أَنْقَد، ورَوْضُه أنضَر، وسراجُه أزهَر. ويزيد على كل من تَقدَّم بالكتاب «التاجيّ»، فإنه أبان عن أمور وكنى في مواضع، وشنَّ الغارة في الصبح المنير مع الرَّعِيل الأول، ودلَّ على التفلسف، وعلى الاطِّلاع على حقائق السياسة، ولو لم يكن له غيره لكان به أعرَق الناس في الخطابة، وأعرق الكتَّاب في الكتابة. هذا، ونظمُه منثورُه، ومنثورُه منظومُه، إنما هو ذهبٌ إبريزٌ كيفما سُبِك فهو واحد، وإنما يختلف بما يُصاغ منه ويُشَكَّل عليه. هذا، مع الظُّرْف الناصع والتواضع الحَسَن، واللهجة اللطيفة، والخُلُق الدَّمِث، والمعرفة بالزمان، والخبرة بأصناف الناس. وله فنونٌ من الكلام ما سبقه إليها أحد، وما ماثله فيها إنسان. وإني لأَرْحَم من لا يُسلِّم له هذا الوصف، لأنه إما أن يكون جاهلًا وإما عالمًا، فإن كان جاهلًا فهو معذور، وإن كان عالمًا فهو

مَلُوم لأنه يدل من نفسه بدافع ما يعلمه على حسده، والحاسد مَهِين.

قال: هل كان في زمان هؤلاءِ من يُلْحَق بهم، ويَدخُل في زمرتهم؟ قلت: نعم، أبو طالب الجَرَّاحي، من آل علي بن عيسى، كتب للمَرْزُبان ملِك الدَّيْلَم بعدما انتَجَع فِناء ابن العميد أبي الفضل، فحسده وطرده، وعَضَّ بعد ذلك على ناجِذِه ندمًا على سوء فعله، ولقي منه أبو طالب الأمرَّيْن. ورسائلُه مبثوثة.

وأبو الحسن الفَلَكي، وكان من أهل البصرة، ووقع إلى المراغة ونواحيها. وهو حَسَن الدِّيباجة، رقيق حواشي اللفظ، وهو أَحَدُّهم غَرْبًا، وأغْزَرُهم سَكْبًا، وأبعَدُهم مُناحًا، وأعذَبُهم نُقاخًا، وأعطفُهم للأول على الآخِر، وأنشَرُهم للباطن من الظاهر. وقرأتُ له: فإن رأى أن ينظر نظر راحمٍ متعطِّف إلى نادم متلهِّف، ويجعل العفوَ عن فَرْطَته وكفرانِه صدقةً عن بسطتِه وسلطانِه، فأجدَر الناس بالاغتفار أقدَرُهم على الانتصار؛ فَعَلَ إن شاء الله تعالى. وله مكاتبات واسعة بينه وبين رجل من أهل المراغة يقال له محمد بن إبراهيم، من أهل «سُرَّ مَن رأى». وفي الجملة، الفضل في الناس مَبْثُوث، وهم منه على جُدُود، والمرذول هو العاري من لَبُوسِه، المتردِّد بين تخلُّفه ونقصِه.

قال: فكيف يتم له ما هو فيه مع هذه الصفات التي تذكرها؟

قلت: والله لو أن عجوزًا بلهاء، أو أمةً وَرْهاء أُقِيمَت مُقامه، لكانت الأمور على هذا السياق.

قال: وكيف ذاك؟ قلتُ: قد أَمِن أن يقال له: لِمَ فعلتَ، ولِمَ لَم تفعل؟

وهذا باب لا يتفق لأحدٍ من خَدَم الملوك إلا بجَدٍّ سعيد، ولقد نُصِح صاحبُه الهَرَوِيُّ في أموال تَاوية، وأمورٍ من النظر عارية، فقَذَف بالرُّقعة إليه حتى عرَف ما فيها، ثم قتل الراقعَ خنقًا. هذا، وهو يدين بالوعيد، وله نظائر، ولنظائره نظائر، ولكن ليس له ناظر، ولا فيه مُناظر. وقال لي الثقةُ من أصحابه: ربما شَرَع في أمر يُحكَم فيه بالخطأ فيقلبُه جَدُّه صوابًا حتى كأنه عن وحي. وأسرار الله في خلقه عند الارتفاع والانحطاط خفيَّةٌ في أستار الغيب، لا يهتدي إليها ملَك مقرَّب، ولا نبي مرسَل، ولا وليٌّ مهذَّب. ولو جرت الأمور على موضوع الرأي وقضية العقل، لكان معلِّمًا في مصطبة على شارع أو في دارٍ، فإنه يخرِّج الإنسان بتفيهُقِه وتشادُقِه، واستحقاره واستكباره، وإعادتِه وإبدائه، وهذه أشكال تُعْجِب الصبيان ولا تنفِّرهم من المعلِّمين، ويكون فرحُهم بها سببًا للملازمة والحرصِ على التعلُّم والحفظ والرواية والدراسة.

قال: هذا قدرٌ كافٍ إلى أن تبيِّض الرسالة. هاتِ مُلْحَة الوداع. قلتُ: قال أبو العيناء: قال أبو دعلج: قال المهديُّ: بايع. قلتُ: أبايعكم عَلَامَ؟ قال: على ما بُويِع رسول الله ﷺ يوم صِفِّين! قال كريز أبو سيَّار المسمعيُّ: إن رسول الله ﷺ لم يدرك صِفِّين، إنما كانت صِفِّين بين عليٍّ ومعاوية. فقال دوست بن رباط الفُقَيْميُّ أبو شعيب: قد علم الأميرُ هذا، ولكن أحبَّ التسهيل على الناس! وانصرفتُ.

* * *

الليلة السادسة

ثم حضرتُه ليلةً أخرى، فأول ما فاتحَ به المجلسَ أن قال: أتفضِّل العرب على العجم أم العجم على العرب؟

قلت: الأمم عند العلماء أربع: الروم والعرب وفارس والهند، وثلاث من هؤلاء عجم، وصعبٌ أن يقال: العرب وحدها أفضل من هؤلاء الثلاثة، مع جوامع ما لَها وتفاريقِ ما عندها.

قال: إنما أريد بهذا الفُرْس. فقلتُ: قبل أن أحكم بشيء من تلقاء نفسي أروي كلامًا لابن المقفَّع، وهو أصيلٌ في الفُرْس عريق في العجم، مفضَّل بين أهل الفضل، وهو صاحب «اليتيمة» القائل: تركتُ أصحاب الرسائل بعد هذا الكتاب في ضَحْضَاح من الكلام.

قال: هاتِ على بركة الله وعونه.

قلت: قال شَبيب بن شَبَّة: إنَّا لَوُقوفٌ في عَرْصَة المِرْبَد وهو موقف الأشراف ومجتمع الناس وقد حضر أعيان المصر إذ طلع ابن المقفَّع، فما فينا أحد إلا هَشَّ له، وارتاح إلى مُساءلته، وسُرِرْنا بطلعته، فقال: ما يَقِفُكم على متون دوابِّكم في هذا الموضع؟ فوالله لو بعث الخليفةُ إلى أهل الأرض يبتغي مثلَكم ما أصاب أحدًا سواكم، فهل لكم في دار ابن برثن في ظلٍّ ممدود، وواقيةٍ من الشمس، واستقبال من الشَّمال، وترويحٍ للدَّوابِّ والغلمان، ونتمهَّد الأرض فإنها خير بساط وأَوْطَؤُه، ويَسمع بعضنا من بعض، فهو أَمَدُّ للمجلس، وأَدَرُّ للحديث. فسارعنا إلى ذلك، ونزلنا عن دوابِّنا في دار ابن

برثن نتنسَّم الشَّمال، إذ أقبل علينا ابن المقفع، فقال: أيُّ الأمم أعقل؟ فظننا أنه يريد الفرس فقلنا: فارس أعقل الأمم، نقصد مقاربته ونتوخَّى مصانعته. فقال: كلا، ليس ذلك لها ولا فيها، هم قوم عُلِّموا فتعلَّموا، ومُثِّل لهم فامتثَلوا واقتدوا، وبُدِئُوا بأمر فصاروا إلى اتِّباعه، ليس لهم استنباط ولا استخراج. فقلنا له: الروم. فقال: ليس ذلك عندها، بل لهم أبدانٌ وثيقة، وهم أصحاب بناء وهندسة، لا يعرفون سواهما، ولا يحسنون غيرهما.

قلنا: فالصِّين. قال: أصحاب أثاثٍ وصنعة، لا فكر لها ولا روِيَّة. قلنا: فالتُّرْك. قال: سِبَاع للهِرَاش. قلنا: فالهند. قال: أصحاب وَهْم ومَخْرَقَة وشَعْبَذة وحيلة. قلنا: فالزَّنْج. قال: بهائِم هاملة. فرددنا الأمرَ إليه. قال: العرب. فتَلاحَظْنا وهَمَس بعضنا إلى بعض، فغاظه ذلك منَّا، وامتُقِع لونُه، ثم قال: كأنكم تظنون فيَّ مقارَبتكم، فوالله لوددتُ أن الأمر ليس لكم ولا فيكم، ولكن كرهتُ إنْ فاتني الأمر أن يفوتني الصواب، ولكن لا أدَعُكم حتى أبيِّن لكم لِمَ قلت ذلك لأخرج من ظِنَّة المداراة، وتوهُّم المصانعة؛ إن العرب ليس لها أولٌ تؤمُّه٦ ولا كتابٌ يدلُّها، أهلُ بلد قَفْر، ووحشةٍ من الإنس، احتاج كلُّ واحد منهم في وحدته إلى فكره ونظره وعقله. وعلموا أن معاشهم من نبات الأرض فوَسَموا كلَّ شيء بسِمَته، ونسبوه إلى جنسه، وعرفوا مصلحة ذلك في رطبِه ويابسه، وأوقاتِه وأزمنتِه، وما يَصلُح منه في الشاة والبعير. ثم نظروا إلى الزمان واختلافه، فجعلوه ربيعيًّا وصيفيًّا، وقَيْظِيًّا وشتويًّا، ثم علموا أن شربهم من السماء، فوضعوا لذلك الأَنْواء، وعرفوا تغير الزمان فجعلوا له منازله من السنة. واحتاجوا إلى الانتشار في الأرض، فجعلوا نجوم السماء أدلةً على أطراف الأرض وأقطارِها، فسلكوا بها البلاد. وجعلوا بينهم شيئًا ينتهون به عن المنكر، ويرغِّبهم في الجميل،

ويتجنبون به الدناءة، ويحضُّهم على المكارم، حتى إن الرجل منهم وهو في فَجٍّ من الأرض يصف المكارمَ فما يُبْقِي من نعتها شيئًا، ويُسرف في ذمِّ المساوئ فلا يقصِّر. ليس لهم كلام إلا وهم يُحاضُّون به على اصطناع المعروف، ثم حفْظ الجار وبذْل المال وابتناء المَحامد، كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله، ويستخرجه بفطنته وفكرته، فلا يتعلمون ولا يتأدَّبون، بل نَحائزُ مؤدَّبة، وعقولٌ عارفة. فلذلك قلت لكم إنهم أعقل الأمم، لصحة الفطرة، واعتدال البِنيَة، وصواب الفِكر، وذكاء الفهم. هذا آخر الحديث.

قال: ما أحسنَ ما قال ابن المقفع وما أحسنَ ما قصصتَه وما أتيتَ به هاتِ الآن ما عندك من مسموع ومستنبَط.

فقلت: إن كان ما قال هذا الرجل البارعُ في أدبه المقدَّمُ بعقله كافيًا، فالزيادة عليه فضلٌ مستغنًى عنه، وإعْقابُه بما هو مثله لا فائدة فيه.

فقال: حدُّ الوصف في التزيين والتقبيح مختلف الدلائل على ما يُعتقَد صوابُه وخطؤه، متباين. وهذه مسألة أعني تفضيل أمة على أمة من أمهات ما تَدارَأَ الناس عليه وتدافعوا فيه، ولم يرجعوا منذ تناقلوا الكلام في هذا الباب إلى صلح متين واتفاق ظاهر.

فقلتُ: بالواجب ما وقع هذا، فإن الفارسيَّ ليس في فطرته ولا عادتِه ولا مَنْشَئه أن يعترف بفضل العربي، ولا في جِبِلَّة العربي ودَيْدَنِه أن يقر فضل الفارسي. وكذلك الهندي والرومي والتركي والديلمي. وبعد، فاعتبار الفضل والشرف موقوف على شيئَيْن: أحدهما ما خُصَّ به قوم دون قوم في أيام النشأة بالاختيار للجيِّد والرديء، والرأي الصائب والفائل، والنظر في الأول

والآخر. وإذا وقف الأمرُ على هذا فلكل أمة فضائلُ ورذائل، ولكل قوم محاسنُ ومَساوٍ، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلِّها وعقدها كمال وتقصير. وهذا يَقضِي بأن الخيرات والفضائل والشرور والنقائص مُفَاضَة على جميع الخلق، مفضوضةٌ بين كلِّهم. فللفُرْس السياسة والآداب والحدود والرسوم، وللرُّوم العلم والحكمة، وللهند الفِكْر والرويَّة والخفَّة والسِّحْر والأَناة، وللتُّرْك الشجاعة والإقدام، وللزَّنْج الصبر والكَدُّ والفرح، وللعرب النجدة والقِرَى والوفاء والبلاء والجود والذِّمام والخطابة والبيان.

وها هنا شيء آخَر، وهو أصل كبير لا يجوز أن يخلو كلامُنا من الدلالة عليه والإيماء إليه، وهو أنَّ كل أمة لها زمان على ضدها، وهذا بيّن مكشوف إذا أرسلت وهمك في دولة يونان والإسكندر لَمَّا غَلَب وساس ومَلَك، ورَأَس وفتَق ورَتَق، ورسَم ودبَّر وأمر، وحَثَّ وزجر، ومحا وسطَّر، وفعل وأخبر، وكذلك إذا عطفت إلى حديث كسرى أنوشروَان وجدت هذه الأحوال بأعيانها، وإن كانت في غُلْف غير غُلْف الأول، ومَعارِض غير معارض المتقدِّم، ولهذا قال أبو مسلم صاحب الدولة حين قيل له: أيُّ الناس وجدتَهم أشجع؟ فقال: كل قوم في إقبال دولتِهم شجعان، وقد صدق. وعلى هذا كل أمة في مبدأ سعادتها أفضلُ وأَنْجد وأشجع وأمجد وأسخى وأجود وأخطَب وأنطَق وأَرْأَى وأصدق. وهذا الاعتبار ينساق من شيء عامٍّ لجميع الأمم، إلى شيء شاملٍ لأمَّةٍ أمَّةٍ، إلى شيء حاوٍ لطائفةٍ طائفةٍ، إلى شيء غالبٍ على قبيلةٍ قبيلةٍ، إلى شيء معتادٍ في بيتٍ بيتٍ، إلى شيءٍ خاصٍّ بشخصٍ شخصٍ وإنسانٍ إنسانٍ.

وأعجب أيضًا فضلَ عجب من الجَيْهَانِيّ في كتابه وهو يسبُّ العرب، ويتناول أعراضَها، ويحطُّ من أقدارها، ويقول: يأكلون اليَرابِيع والضِّباب

والجُرْذان والحيَّات، ويتعاورون ويتساورون، ويتهاجَوْن ويتفاحشون. وكأنَّهم قد سُلِخوا من فضائل البَشَر، ولبسوا أُهُب الخنازير. قال: ولهذا كان كسرى يسمّي ملِك العرب «سَگان شاه»، أي ملِك الكلاب. قال: وهذا لشدة شبههم بالكلاب وجِرائها، والذئاب وأَطْلائها. وكلامًا كثيرًا من هذا الصَّوْب أرفع قدره عن مِثله، وإن كان يضع من نفسه بفضل قوله.

أتُراه لا يعلم لو نزل ذلك القفرَ وتلك الجزيرة وذلك المكان الخاوي وتلك الفَيافيَ والمَوامِيَ كلُّ كسرى كان في الفُرس، وكلُّ قيصر كان في الروم، وكلُّ بَلَهْوَر كان بالهند، وكلُّ فُغْفور كان بخراسان، وكلُّ خاقان كان بالتُّرْك، وكلُّ أَخْشَاد كان بفَرْغَانة، ما كانوا يَعْدُون هذه الأحوال، لأن من جاع أكل ما وجد، وطعِم ما لَحِق، وشَرِب ما قَدَر عليه، حبًّا للحياة، وطلبًا للبقاء، وجزعًا من الموت، وهربًا من الفَناء.

أتُرى أنوشروان إذا وقع إلى فيافي بني أسد، وبَرِّ «وَبار» وسُفوح طِيبة، ورَمْل يَبْرِين، وساحة هَبير، وجاع وعَطِش وعَرِي؛ أما كان يأكل اليَرْبُوع والجُرْذان، وما كان يشرب بول الجمل وماء البئر، وما أَسَن في تلك الوَهَدات؟ أوَما كان يلبس البُرْجُد والخَمِيصة والسَّمِل من الثياب وما هو دونه وأخشَن؟ بلى والله، ويأكل حشرات الأرض ونبات الجبال، وكلَّ ما حَمض ومرَّ، وخبُث وضَر، هذا جهلٌ من قائله، وحَيْفٌ من منتحله. على أن العرب رحمك الله أحسن الناس حالًا وعيشًا إذا جادتهم السماء، وصدقَتْهم الأنواء، وازدانت الأرض، فهُدّلت الثمار، واطَّردت الأودية، وكثر اللبن والأَقِط والجبن واللحم والرُّطَب والتمر والقمح، وقامت لهم الأسواق، وطابت المرابع، وفشا الخصب، وتوالى النَّتاج، واتصلت المِيرة، وصدق

المصاب، وأَرْفَغ المنتجِع، وتلاقت القبائل على المحاضر، وتقاولوا وتضايفوا، وتعاقدوا وتعاهدوا، وتزاوروا وتناشدوا، وعقدوا الذمم، ونطقوا بالحِكَم، وقرَوا الطُّرَّاق، ووصلوا العُفاة، وزوَّدوا السابلة، وأرشدوا الضُّلَّال، وقاموا بالحَمالات، وفكوا الأسرى، وتداعَوا الجَفَلى، وتعافَوا النَّقَرى، وتنافسوا في أفعال المعروف. هذا وهم في مساقط رءوسهم بين جبالهم ورمالهم، ومناشئ آبائهم وأجدادهم، وموالد أهلهم وأولادهم، على جاهليتهم الأولى والثانية، وقد رأيتَ حين هبت ريحهم وأشرقت دولتهم بالدعوة، وانتشرت دعوتهم بالملة، وعزَّت ملتهم بالنبوة، وغلبت نبوتهم بالشريعة، ورسخت شريعتهم بالخلافة، ونُضِّرتْ خلافتهم بالسياسة الدينية والدنيوية؛ كيف تحولت جميع محاسن الأمم إليهم، وكيف وقعت فضائل الأجيال عليهم من غير أن طلبوها وكدحوا في حيازتها أو تعبوا في نيلها، بل جاءتهم هذه المناقب والمفاخر، وهذه النوادر من المآثر عفوًا، وقطنتْ بين أطناب بيوتهم سهوًا رَهْوًا.

وهكذا يكون كل شيء تولاه الله بتوفيقه، وساقه إلى أهله بتأييده، وحلَّى مستحقيه باختياره، ولا غالب لأمر الله، ولا مبدِّل لحكم الله، ولذلك قال الله تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. ولله في خلقه أسرار، تتصرف بها دوائر الليل والنهار، وتذلِّلها مجاري الأقدار، حتى يُنتهَى بمحبوبها ومكروهها إلى القرار.

عَزَّ إلهًا معبودًا، وجل ربًّا محمودًا مقصودًا. وبعد، فالذي لا شك فيه مِن وصف العرب، ولا جاحد له من حالها؛ أنه ليس على وجه الأرض جيلٌ من الناس ينزلون القفر، وينتجعون السحاب والقطر، ويعالجون الإبل والخيل والغنم

وغيرها، ويستبدُّون في مصالحهم بكل ما عز وهان، وبكل ما قل وكثر، وبكل ما سهل وعسر، ويرجون الخير من السماء في صوبها،ومن الأرض في نباتها، مع مراعاة الأوان بعد الأوان، وثقةً بالحال بعد الحال، وتبصرةً فيما يُفعل ويُجتنب؛ ما للعرب فيما قدمنا وصفه، وكررنا شرحه، من علمهم بالخصب والجدب، واللين والقسوة، والحر والبرد، والرياح المختلفة، والسحائب الكاذبة، والمخايل الصادقة، والأنواء المحمودة والمذمومة، والأسباب الغريبة العجيبة. وهذا لأنهم مع توحشهم مستأنسون، وفي بواديهم حاضرون، فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسن العادات، ومن أخلاق البادية أطهر الأخلاق.

وهذا المعنى على هذا النظم قد عدمه أصحاب المدن وأرباب الحضر، لأن الدناءة والرقة والكيْس والهَيْن والخَلابة والخداع والحيلة والمكر والخِبَّ تغلب على هؤلاء وتملكهم، لأن مدار أمرهم على المعاملات السيئة، والكذب في الحِس، والخلف في الوعد.

فلما بلغ القول مداه قال: لله دَرُّ هذا النفَس الطويل، والنفْث الغزير! لقد كنتُ قَرِمًا إلى هذا النوع من الكلام، ففرِّغ نفسك لرسمه في جزء لأنظر فيه، وأُشرِب النفسَ حلاوته، وأستنتجَ العقيمَ منه، فإن الكلام إذا مر بالسمع حلَّق، وإذا شارَفَه البصر بالقراءة من كتاب أَسَفَّ، والمحلِّق بعيد المنال والمُسِفُّ حاضر العين، والمسموع إذا لم يملكه الحفظ تُذُكِّر منه الشيءُ بعد الشيء بالوهم الذي لا انعقاد له، والخيال الذي لا معرَّج عليه. فقلت: أفعل سامعًا مطيعًا إن شاء الله.

* * *

الليلة السابعة

ولما عدتُ إليه في مجلس آخر، قال: سمعتُ صياحك اليوم في الدار مع ابن عبيد، ففيم كنتما؟

قلت: كان يذكر أن كتابة الحساب أنفعُ وأفضل وأعلق بالمُلك والسلطان إليه أحوج، وهو بها أغنى من كتابة البلاغة والإنشاء والتحرير، فإذا الكتابة الأولى جِدٌّ والأخرى هزل، ألا ترى أن التشادُق والتفيهُق والكذب والخداع فيها أكثر، وليس كذلك الحسابُ والتحصيل والاستدراك والتفصيل؟

قال: وبعد هذا فتلك صناعةٌ معروفة بالمبدأ، موصولةٌ بالغاية، حاضرة الجدوَى، سريعة المنفعة. والبلاغة زخرفة وحيلة، وهي شبيهة بالسراب، كما أن الأخرى شبيهة بالماء. قال: ومن خساسة البلاغة أن أصحابها يُسترقَعون ويُستحمَقون، وكان الكتَّاب قديمًا في دُور الخلفاء ومجالس الوزراء يقولون: اللهم إنا نعوذ بك من رقاعة المنشئين، وحماقة المعلمين، وركاكةِ النحويين! والمنشئُ والمعلِّم والنحويُّ إخوة وإن كانوا لعَلَّات، والآفة تشملهم، والعادة تجمعهم، والنقص يغمرهم، وإن اختلفت منازلهم، وتباينت أحوالهم.

قال: ولو لم يكن من صنعة الإنشاء إلا أن المملكة العريضة الواسعة يُكتفَى فيها بمنشئ واحد، ولا يُكتفَى فيها بمائة كاتب حساب ...، وإذا كانت الحاجة إلى هذه أمسَّ كانت الأخرى في نفسها أخسَّ. وبعد، فمصالح أحوال العامة والخاصة معلَّقة بالحساب. على هذه الجَدِيلة والوتيرة يجري

الصغار والكبار والعِلْية والسِّفْلة، وما زال أهل الحزم والتجارب يحثون أولادهم ومن لهم به عناية على تعلم الحساب، ويقولون لهم: هو سلة الخبز. وهذا كلام مستفيض. ومن عبر عما في نفسه بلفظ ملحونٍ أو محرَّف أو موضوع غيرَ موضعه وأفهَم غيره وبلغ به إرادته وأبلغ غيرَه؛ فقد كفى. والزائد على الكفاية فضل، والفضلُ يُستغنَى عنه كثيرًا، والأصل يُفتقَر إليه شديدًا.

قال: ومن آفات هذه الكتابة أن أصحابها يُقرَفون بالريبة، ويُرمَون بالآفة كآل الحسن بن وهب وآل ابن ثَوَابة. قال: هذه ملحمة منكَرة، فما كان من الجواب؟

قلتُ: ما قام من مجلسه إلا بعد الذل والقَمَاءة، وهكذا يكون حال من عاب القمر بالكلَف والشمس بالكسوف، وانتحل الباطل ونصر المبطِل، وأبطل الحق وزرى على المحقِّ. قلت: أيها الرجل، قولك هذا كان يسلَّم لو كان الإنشاء والتحرير والبلاغة بائنةً من صناعة الحساب والتحصيل والاستدراك وعمل الجماعة وعقد المؤامرة، فأمَّا وهي متصلة بها وداخلة في جملتها ومشتملة عليها وحاوية لها، فكيف يطَّرد حُكمك وتسلم دعواك؟ ألا تعلم أن أعمال الدواوين التي ينفرد أصحابها فيها بعمل الحساب فقيرة إلى إنشاء الكتب في فنون ما يصفونه ويتعاطونه، بل لا سبيل لهم إلى العمل إلا بعد تقدمة هذه الكتب التي مدارها على الإفهام البليغ والبيان المكشوف والاحتجاج الواضح؟ وذلك يوجد من الكاتب المنشئ الذي عِبتَه وعَضضته. وهذه الدواوين معروفة والأعمال فيها موصوفة، وأنا أحصيها لك كي تعلم أنك غالط وعن الصواب فيها منحرف.

فمنها ديوان الجيش، وديوان بيت المال، وديوان التوقيع والدار، وديوان الخاتَم، وديوان الفَضِّ، وديوان النقد والعيار ودُور الضرب، وديوان المظالم، وديوان الشرطة والأحداث. هذا إلى توابع هذه الدواوين، مثل باب العين والمؤامرات، وباب النوادر والتواريخ، وإدارة الكتب ومجالس الديوان، وقبْل وبعد. كما يلزم كاتب الحساب أن يعرف وجوهَ الأموال، حتى إذا جباها وحصَّلها عمل الحساب أعماله فيها، فلا يمكنه أن يَجْبِي إلا بالكتب البليغة والحجج اللازمة واللطائف المستعملة، ومن تلك الوجوه الفيء، وهو أرض العَنْوة وأرض الصلح وإحياء الأرض والقطائع والصفايا والمقاسمة والوضائع وجزية رءوس أهل الذمة وصدقات الإبل والبقر والغنم وأخماسُ الغنائم والمعادن والركاز والمال المدفون، وما يخرج من البحر وما يؤخذ من التجار إذا مروا بالعاشر واللُّقَطة والضالَّة وميراث من لا وارث له ومال الصدقة، إلى غير ذلك من الأمور المحتاجة إلى المكاتبات البالغة على الرسوم المعتادة والعادات الجارية، كعهد يُنشأ في إصلاح البريد وتقسيط الشرب، وكتاب في العمارة وإعادة ما نقص منها، وفي حَزْر الغلة والدِّيَاس، وفي الدوالي والدواليب والغرَّافات، وفي القلب والقسمة، وفي تقدير الخُضَر المبكرة وفي المساحة وفي الطراز، وفي الجوالي، وفي قبض فرائض الصدقات، وفي افتتاح الخَراجات، إلى غير ذلك من كتب المحاسبين.

* * *

الليلة الثامنة

وقال لي مرة أخرى: أوْصل وهبُ بن يعيش الرقيُّ اليهوديُّ رسالةً يقول في عُرْضها بعد التقريظ الطويل العريض: إن هنا طريقًا في إدراك الفلسفة مذلَّلةً مسلوكةً مختصرة فسيحة، ليس على سالكها كدٌّ ولا شَقٌّ في بلوغ ما يريد من الحكمة ونيل ما يطلب من السعادة وتحصيل الفوز في العاقبة، وإن أصحابنا طوَّلوا وهوَّلوا وطرحوا الشوك في الطريق، ومَنَعوا من الجواز عليه غشًّا منهم وبخلًا ولؤمَ طباع وقلةَ نصح وإتعابًا للطالب وحسدًا للراغب، وذلك أنهم اتخذوا المنطق والهندسة وما دخل فيهما معيشةً ومكسبة ومأكلة ومشربة، فصار ذلك كسُور من حديد لطُلاب الحكمة والمحبين للحقيقة والمتصفحين لأثناء العالم، وكلامًا هذا معناه، وإلى هذا يرجع مغزاه.

فكان من الجواب: قد عرفتُ مذهب ابن يعيش في هذا الباب، وهو جاري، وكتب هذه الرسالة على هذا الطراز بالأمس إلى الملِك السعيد سنة سبعين، وتقرَّب بها، ونفعتُه بالمسألة والتفقد له، فإنه شديد الفقر، ظاهر الخَصاصة، لاصق بالدَّقْعاء. وللذي قاله وادعاه وقصده وانتحاه وجهٌ واضح وحجة ظاهرة، وللذي قاله أصحابنا أعني مخالفيه وجهٌ أيضًا وتأويل، وللقولين أنصار وحُماة وحفَظة ورعاة.

قال: هاتِ على بركة الله، فإني أحب أن أسمع في هذا الخطب كلَّ ما فيه وأكثرَ ما يتصل به. فكان من الجواب أن ابن يعيش يريد بهذه الخطبة أن عمر الإنسان قصير، وعلمَ العالم كثير، وسره مغمور. وكيف لا يكون كذلك

وهو ذو صفائح مركَّبة بالوضع المحكم، وذو نضائد مزيَّنة بالتأليف المعجب المتقَن، والإنسان الباحث عنه وعما يحتويه ذو قوًى متقاصرة، وموانع معترضة، ودواعٍ ضعيفة، وإنه مع هذه الأحوال منتبه بالحس، حالمٌ بالعقل، عاشقٌ للشاهد، ذاهل عن الغائب، مستأنسٌ بالوطن الذي ألِفه ونشأ فيه، مستوحشٌ من بلد لم يسافر إليه ولم يُلِمَّ به وإن كان صدر عنه، فليس له بذلك معرفة باقية ولا ثقةٌ تامة. وإن الأولى بهذا الإنسان المنعوت بهذا الضعف والعجز أن يلتمس مسلكًا إلى سعادته ونجاته قريبًا، ويعتصم بأسهل الأسباب على قدر جهده وطَوْقه. وإن أقرب الطرق وأسهل الأسباب هو في معرفة الطبيعة والنفس والعقل والإله تعالى، فإنه متى عرف هذه الجملة بالتفصيل، واطلع على هذا التفصيل بالجملة؛ فقد فاز الفوز الأكبر ونال المُلك الأعظم، وكُفِي مئونة عظيمة في قراءة الكتب الكبار ذوات الورق الكثير، مع العناء المتصل في الدرس والتصحيح والنصَب في المسألة والجواب، والتنقير عن الحق والصواب. وهذا الذي قاله ابن يعيش ليس بحيف ولا خارجٍ عن حَوْمة الحق، وإن كان الأمر فيه أيضًا صعبًا وشاقًّا وهائلًا وعاملًا، ولكن ليس لكل أحد هذه القوة الفائضة، وهذه الخصوصية الناهضة، وهذا الاستبصار الحسن، وهذا الطبع الوقاد، والذهن المنقاد، والقريحة الصافية، والاستبانة والتأمل، لأن هذه القوة إلهية، فإن لم تكن إلهية فهي ملكية، وإن لم تكن ملَكية فهي في أفق البشرية. وليس يوجد صاحب هذا النعت إلا في الشاذِّ النادر، وفي دهر مديدٍ بين أمة جمة العدد. والفائقُ من كل شيء والبائن من كل صنف عزيزٌ في هذا العالم الوحشي، كما أن الرديء والفاسد معدوم في هذا العالَم الإلهي، ويمكن أن يقال بالمثل الأدنى:

إن من يتكلم بالإعراب والصحة ولا يلحن ولا يخطئ ويجري على السليقة الحميدة والضريبة السليمة، قليل أو عزيز، وإن الحاجة شديدة لمن عدم هذه السجية وهذا المنشأ إلى أن يتعلم النحو ويقف على أحكامه، ويجري على منهاجه، ويفي بشروطه في أسماء العرب وأفعالها وحروفها وموضوعاتها ومستعمَلاتها ومهملاتها. ومتى اتفق إنسانٌ بهذه الحلية وعلى هذا النِّجار، فلعمري إنه غنيٌّ عن تطويل النحويين كما يستغني قارض الشعر بالطبع عن علم العروض. وهكذا يستغني صاحب تلك القوة التي أشار إليها ابن يعيش عن ذلك، ولكن أين ذاك الفرد والشاذ والنادر؟ فإن حضر فما تفعل معه إلا أن تقلده وتأخذ عنه وتتّبعه؟

وإنما المدار على أن تكون أنت بهذا الكمال حائزًا لهذه الغاية. ولا سبيل لك إليها من تلقاء نفسك، وإنما هو شيء يأتي من تلقاء غيرك، فإذن بالضرورة وبالواجب ينبغي أن تخطو على آثار المنطقيين والطبيعيين والمهندسين بالزحف والعَناء والتكلف والدُّءوب، حتى تصير متشبهًا بذلك الرجل الفاضل والواحد الكامل والبديع النادر. فقد بان من هذا القدر صواب ما أشار إليه ابن يعيش وانكشف أيضًا وجهُ ما حث عليه مخالفوه، ولا عيب على المنقوص أن يطلب الزيادة ببذل المجهود، وإن الكامل مربوط بما مُنح من العطية من غير طلب.

* * *

الليلة التاسعة

وعُدتُ ليلة أخرى فقال: فاتحةُ الحديث معك، فهاتِ ما عندك. فكان من الجواب أن أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة مؤتلِفةٌ في نوع الإنسان، وذلك أن الإنسان صفوُ الجنس الذي هو الحيوان، والحيوان كَدَر النوع الذي هو الإنسان، والإنسان صفو الشخص الذي هو واحد من النوع، وما كان صفوًا ومُصاصًا بهذا النظر انتظم فيه من كل ضرب من الحيوان خُلُق وخُلُقان وأكثر، وظهر ذلك عليه وبطن أيضًا بالأقل والأكثر والأغلب والأضعف، كالكُمُون الذي في طباع السبع والفأرة، والثباتِ الذي في طباع الذئب، والتحرُّز الذي في طباع الجاموس من بنات الليل، والحذر الذي في طباع الخنزير، والتقدم الذي في طباع الفيل أمام قطيعه تمثُّلًا بصاحب المقدِّمة. وكذلك ضد ذلك في الخنزير تمثُّلًا بصاحب الساقة، وكالحراسة التي في طباع الكلب، وكأَوْبِ الطير إلى أوكارها التي تراها كالمعاقل وغيرِها بالدَّغَل والأشَبِ والغِياض. ولهذا قال بعض الحكماء: خذ من الخنزير بُكورَه في الحوائج، ومن الكلب نُصحَه لأهله، ومن الهرَّة لطفَ نَفْسها عند المسألة.

وقالت التُّرْك: ينبغي للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان: سخاء الديك، وتحنُّن الدجاجة، ونجدة الأسد، وحَملة الخنزير، ورَوَغان الثعلب، وصبرُ الكلب، وحراسةُ الكرْكِيِّ، وحذر الغراب، وغارة الذئب، وسِمَن بعروا، وهي دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء. ولما وُهِب الإنسان الفطرة، وأُعِين بالفكرة، ورُفِد بالعقل؛ جمع هذه الخصال

وما هو أكثر منها لنفسه وفي نفسه، وبسبب هذه المزية الظاهرة فَضَل جميع الحيوان حتى صار يبلغ منها مراده بالتسخير والإعمال واستخراج المنافع منها وإدراكِ الحاجات بها، وهذه المزية التي له مستفادة بالعقل، لأن العقل ينبوع العلم، والطبيعة ينبوع الصناعات، والفكرُ بينهما مستملٍ منهما ومؤدٍّ بعضها إلى بعض بالفيض الإمكاني والتوزيع الإنساني، فصوابُ بديهة الفكرة من سلامة العقل، وصوابُ رويَّة الفكرة من صحة الطباع، وصحةُ الطباع من موافقة المزاج، وموافقة المزاج بالمَدَد الاتفاقي والاتفاقِ الغيبي، أعني بهذا أن وجه الحادث المجهول عندنا اتفاق، ووجه الحادث المعلوم عند الله عزَّ وجلَّ غيب، فلو ظهر هذا الغيب لبطل الاتفاق، ولو بطل الاتفاق لارتفع الغيب. فانقسمت الأحداث بين ما هو على جَديلة واحدة معروفة وبين نادر لا يدوم العهد به، فدلَّ ما ظهر واستمرَّ على ما جاد به ووَهَب، ودلَّ ما غاب واستتر على ما تَفرَّد به وغَلَب.

ولما كان الحيوان كلُّه يعمل صنائعَه بالإلهام على وتيرة قائمة، وكان الإنسان يتصرف فيها بالاختيار؛ صحّ له من الإلهام نصيب حتى يكون رِفْدًا له في اختياره. وكذلك يكون النحل أيضًا، صحَّ له من الاختيار قسط في إلهامه حتى يكون ذلك مُعِينًا له في اضطراره، إلا أن نصيب الإنسان من الإلهام أقل كما أن قسط سائر الحيوان من الاختيار أَنْزَر. وثمرة اختيار الإنسان إذا كان مُعانًا بالإلهام أشرف وأَدْوَم وأَجْدَى وأنفع وأبقى وأرفع من ثمرة غيره من الحيوان إذا كان مرفودًا بالاختيار، لأن قوة الاختيار في الحيوان كالحُلم كما أن قوة الإلهام في الإنسان كالظلّ. ومراتب الإنسان في العلم ثلاث تظهر في ثلاثة أنفس: فأحدهم مُلْهَم فيتعلَّم ويعمل، ويصير مبدأً

للمقتبِسين منه، المقتدِين به، الآخذين عنه، الحاذِين على مثاله، المارّين على غِراره، القَافِين على آثاره. وواحد يتعلم ولا يُلْهَم، فهو يماثل الأوَّل في الدرجة الثانية، أعني التعلُّم. وواحد يتعلَّم ويُلْهَم، فتجتمع له هاتان الخَلَّتان فيصير بقليل ما يَتعلَّم مُكثِرًا للعمل والعلمِ بقوة ما يُلْهَم، ويعود بكثرة ما يُلْهَم مصفِّيًا لكل ما يتعلم ويعمل.

والكلام في هذه المواضع ربَّما جَمَح فلم يمكن كفُّه، فينبغي أن يضح العذر إذا عرض تفاوُتٌ في الترتيب، ودخل الخَلَل من ناحية التقريب. وقال أبو سليمان لنا في هذه الأيام: الإنسان بين طبيعته وهي عليه وبين نفسِه وهي له كالمنتهَب المتوزَّع، فإن استمد من العقل نورَه وشعاعَه قَوِيَ ما هو له من النفس وضَعُف ما هو عليه من الطبيعة، وإلَّا فقد قَوِيَ ما هو عليه من الطبيعة وضَعُف ما هو له من النفس.

وحكى لنا فقال: كان للحكماء الأَوَّلِين مَثَلٌ يضربونه ويكتبونه في هياكلهم ومتعبَّداتهم وهو: «المَلَك الموكَّل بالدنيا يقول: إن ها هنا خيرًا وها هنا شرًّا وها هنا ما ليس بخير ولا شر، فمن عرف هذه الثلاثة حقَّ معرفتِها تخلَّص منّي، ونجا سليمًا، وبقي كريمًا، وملك نعيمًا عظيمًا. ومن لم يعرفها قتَلْتُه شرَّ قِتلة، وذلك أني لا أقتله قتلًا وَحِيًّا يستريح به مني، ولكن أقتله أولًا فأولًا في زمان طويل، بحَسَرات على فَوْتِ مأمول بعد مأمول، وبلايا يكون بها كالمغلول المكبول.

قال: هذا كلام شريف في أعلى ذروة الحكمة، لكنك خَلَّيْتَ يدك من طُرَف الحديث في الخُلُق. قلتُ: إذا طاب الحديث باسترسال السجيَّة ووقوع

الطُّمأنينة لَهَا الإنسانُ عن مباديه، وسال مع الخاطر الذي يستهويه، ولِتحفُّظ الإنسان في قوله وعمله من الخَطَل والزَّلَل حَدٌّ إذا بلغه كَلَّ الخاطر واختلَّ.

ثم نعود فنقول: أخلاق الإنسان مقسومة على أنفسه الثلاث؛ أعني النفسَ الناطقة، والنفسَ الغضبيَّة، والنفسَ الشهوانيَّة. وسماتُ هذه الأخلاق مختلِفة بعَرْض واسع. ويمكن أن يقال في نعتها على مذهب التقريب: إنها بين المحمودة وبين المذمومة، وبين المشوبة بالحمد والذم، وبين الخارجة منهما. فمن أخلاق النفس الناطقة إذا صَفَت البحث عن الإنسان ثم عن العالَمِ، لأنه إذا عَرف الإنسانَ فقد عَرف العالَمَ الصغير، وإذا عَرف العالَمَ فقد عَرف الإنسانَ الكبير، وإذا عَرَف العالَمَيْن عرف الإله الذي بجُودِه وُجِد ما وُجِد، وبقدرته ثَبَت ما ثَبَت، وبحكمته ترتَّب ما ترتَّب، وبمجموع هذا كلِّه دام ما دام.

* * *

الليلة العاشرة

وعُدتُ ليلة أخرى فقال: فاتحةُ الحديث معك، فهاتِ ما عندك. فكان من الجواب أن أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة مؤتلِفةٌ في نوع الإنسان، وذلك أن الإنسان صفوُ الجنس الذي هو الحيوان، والحيوان كَدَر النوع الذي هو الإنسان، والإنسان صفو الشخص الذي هو واحد من النوع، وما كان صفوًا ومُصاصًا بهذا النظر انتظم فيه من كل ضرب من الحيوان خُلُق وخُلُقان وأكثر، وظهر ذلك عليه وبطن أيضًا بالأقل والأكثر والأغلب والأضعف، كالكُمُون الذي في طباع السبع والفأرة، والثباتِ الذي في طباع الذئب، والتحرُّز الذي في طباع الجاموس من بنات الليل، والحذر الذي في طباع الخنزير، والتقدم الذي في طباع الفيل أمام قطيعه تمثُّلًا بصاحب المقدِّمة. وكذلك ضد ذلك في الخنزير تمثُّلًا بصاحب الساقة، وكالحراسة التي في طباع الكلب، وكأَوْبِ الطير إلى أوكارها التي تراها كالمعاقل وغيرِها بالدَّغَل والأشَبِ والغِياض. ولهذا قال بعض الحكماء: خذ من الخنزير بُكورَه في الحوائج، ومن الكلب نُصحَه لأهله، ومن الهرَّة لطفَ نَفْسها عند المسألة.

وقالت التُّرْك: ينبغي للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان: سخاء الديك، وتحنُّن الدجاجة، ونجدة الأسد، وحَملة الخنزير، ورَوَغان الثعلب، وصبرُ الكلب، وحراسةُ الكرْكِيّ، وحذر الغراب، وغارة الذئب، وسِمَن بعروا، وهي دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء.

ولما وُهِب الإنسان الفطرة، وأُعِين بالفكرة، ورُفِد بالعقل؛ جمع هذه

الخصال وما هو أكثر منها لنفسه وفي نفسه، وبسبب هذه المزية الظاهرة فَضَل جميع الحيوان حتى صار يبلغ منها مراده بالتسخير والإعمال واستخراج المنافع منها وإدراكِ الحاجات بها، وهذه المزية التي له مستفادة بالعقل، لأن العقل ينبوع العلم، والطبيعة ينبوع الصناعات، والفكرُ بينهما مستملٍ منهما ومؤدٍّ بعضها إلى بعض بالفيض الإمكاني والتوزيع الإنساني، فصوابُ بديهة الفكرة من سلامة العقل، وصوابُ رويَّة الفكرة من صحة الطباع، وصحةُ الطباع من موافقة المزاج، وموافقة المزاج بالمَدَد الاتفاقي والاتفاقِ الغيبي، أعني بهذا أن وجه الحادث المجهول عندنا اتفاق، ووجه الحادث المعلوم عند الله عزَّ وجلَّ غيب، فلو ظهر هذا الغيب لبطل الاتفاق، ولو بطل الاتفاق لارتفع الغيب. فانقسمت الأحداث بين ما هو على جَديلة واحدة معروفة وبين نادر لا يدوم العهد به، فدلَّ ما ظهر واستمرَّ على ما جاد به ووَهَب، ودلَّ ما غاب واستتر على ما تَفرَّد به وغَلَب.

ولما كان الحيوان كلُّه يعمل صنائعَه بالإلهام على وتيرة قائمة، وكان الإنسان يتصرف فيها بالاختيار؛ صحَّ له من الإلهام نصيب حتى يكون رِفْدًا له في اختياره. وكذلك يكون النحل أيضًا، صحَّ له من الاختيار قسط في إلهامه حتى يكون ذلك مُعِينًا له في اضطراره، إلا أن نصيب الإنسان من الإلهام أقل كما أن قسط سائر الحيوان من الاختيار أَنْزَر. وثمرة اختيار الإنسان إذا كان مُعانًا بالإلهام أشرف وأَدْوَم وأَجْدَى وأنفع وأبقى وأرفع من ثمرة غيره من الحيوان إذا كان مرفودًا بالاختيار، لأن قوة الاختيار في الحيوان كالحُلم كما أن قوة الإلهام في الإنسان كالظلِّ.

ومراتب الإنسان في العلم ثلاث تظهر في ثلاثة أنفس: فأحدهم مُلْهَم

فيتعلَّم ويعمل، ويصير مبدأً للمقتبِسِين منه، المقتدِين به، الآخذين عنه، الحاذِين على مثاله، المارّين على غِراره، القَافِين على آثاره. وواحد يتعلم ولا يُلْهَم، فهو يماثل الأوَّل في الدرجة الثانية، أعني التعلُّم. وواحد يتعلَّم ويُلْهَم، فتجتمع له هاتان الخَلَّتان فيصير بقليل ما يَتعلَّم مُكثِرًا للعمل والعلمِ بقوة ما يُلْهَم، ويعود بكثرة ما يُلْهَم مصفِّيًا لكل ما يتعلم ويعمل.

والكلام في هذه المواضع ربَّما جَمَح فلم يمكن كفُّه، فينبغي أن يضح العذر إذا عرض تفاوُتٌ في الترتيب، ودخل الخَلَل من ناحية التقريب.

* * *

الليلة الحادية عشرة

ولما عدتُ في الليلة الأخرى ونَعِمتُ بهذه الفضيلة، تفضَّل وقال: ما في العلم شيءٌ إلا إذا بُدِئ بالكلام فيه اتصل وتسلسل حتى لا يوجد له مَقطَع ولا منفذ. ثم قرأتُ عليه نوادرَ الحيوان وغرائبَ ما كنتُ سمعتُه ووجدتُه فزاد عجبًا، وأنا أرويه في هذا المكان حتى يكون تذكرةً وفائدة إن شاء الله تعالى:

يقال: إن أسنان الرجل اثنتان وثلاثون سنًّا. وأسنان المرأة ثلاثون سنًّا. وأسنان الخَصِيّ ثمانٍ وعشرون سنًّا. وأسنان البقر أربعٌ وعشرون سنًّا. وأسنان الشاة إحدى وعشرون سنًّا. وأسنان التَّيْس ثلاث وعشرون. وأسنان العنز تسع عشرة سنًّا.

الذي ذُكِر من أصناف الحيوان أنه يكتسب معاشه ليلًا: البومة والوَطواط. ومن الحيوان الوحشيّ ما يُستأنَس سريعًا: الفيل. ويُحكَى أن الحيوان الذي أسنانُه قليلة عمره قصير، والذي أسنانه كثيرة عمره طويل. الفيل إذا وُلِد نبتتْ أسنانُه في الحال، فأما أسنانه الكبار وأنيابه الكبار فتظهر إذا شَبَّ وكبِر.

قلب جميع الحيوان موضوعٌ في الوسط من الصدر ما خلا الإنسان، فإن قلبه مائل إلى الجانب الأيسر.

الشعر المولود مع الإنسان شعرُ الرأس والأشفار والحاجبَين. وأول ما ينبت بعد ذلك شعر العانة وشعر الإبطين وشعر اللحية.

إن خُصِي الإنسانُ قبل احتلامه لم ينبت في جسده الشعر الذي يتأخر نباته، وإن خُصِي بعد احتلامه فإن ذلك الشعر يزول ما خلا شعر العانة فإنه يبقى.

المرأة إذا احتبس طَمثُها ربما خرج لها شعرٌ يسيرٌ في موضع اللحية. شعر الحاجبَين ربما طال عند الكِبَر. وشعر الأشفار لا يطول.

للأرانب في داخل أشداقها شعر، وكذلك تحت أرجلها. القنفذ في فيه خمس أسنان في عمقه. والبرِّيَّة منها تَسْفَد قائمة وظهر الأنثى لاصق بظهر الذكر.

الرجال يشتاقون إلى الجماع في الشتاء، والنساء في الصيف.

الكلبة تحمل وتبقى ستين يومًا ويومًا، وهذا أطول ما يكون، ولا تضع قبل أن يتم حملها ستين يومًا، فإن وضعت قبل ذلك فإنها لا تربِّي ولا يبقى لها ولد.

الفيل الذَّكر ينزو إذا تمت له خمس سنين، وزمان هياجه ونزوه أيام الربيع، والأنثى تحمل سنتين ولا تضع إلا واحدًا.

إذا باض الطائر وما كان من أصنافه يخرج من البيضة الطرف العريض ثم يرقُّ بعد ذلك.

كل ما كان من البيض مستطيلًا محدَّد الطرف فهو يفرخ الإناث، وما كان مستديرًا عريض الأطراف يفرخ الذكور. وجُرِّب من إناث الطير أنها إذا لم تجلس على البيض تمرض. القَبْج إذا هاج ووقفت الأنثى قبالة الذكر وهبت

الريح من ناحية الذكر مقبلة إلى ناحيتها، حملت من ساعتها. الحمامة إذا نُتِفَت ريشة من ريشها احتبس بيضها أكثر مما لها بالطبع.

مبدأُ خَلق الفَرخ من بياض البيضة، وغِذاؤه من الصُّفرة، فإذا خرج فرخان كان أحدهما أكبر جثةً من الآخر، والذكر منهما من البيضة الأولى ومن الثانية الأنثى. والحَجَل يعيش عشرين عامًا. الرخَمَة تُفرخ على صخور مشرفة عالية لا ينالها أحد، ولا توجد رخمة وفراخها إلا في الفَرْط.

العُقاب يجلس على البيض ثلاثين يومًا، وكذلك كلُّ طائر عظيم الجثة مثل الإوزّ وما أشبهه، والمتوسط الجثة يجلس على البيض عشرين يومًا كالحِدَأة والبُزاة وما أشبه ذلك. إناث الغِرْبان تجلس على البيض جلوسًا دائمًا، والذكر يأتيها بالطعم حينئذٍ. الحَجَل تعمل عُشَّين يجلس الذكر على واحد والأنثى على واحد. الطاووس يعيش خمسًا وعشرين سنة، وفي هذه المدة تنتهي ألوانُ ريشِه، ويحضُن بيضَه ثلاثين يومًا، قيل: وربما أكثرَ قليلًا، ويبيض في كلِّ سنة مرة واحدة، وعدد بيضه اثنتا عشرة بيضة، ويُلقِي ريشَه في زمن الخريف وبعدَه قليلًا وذلك حين يُلقِي الشجرُ ورقَه، فإذا بدا أولُ الشجر وظهرتْ فروعه ونبت ورقُه بدأ ريشُه يَنبُت.

الدُّلْفِين له لبن، ويُرضِع، ويَحمِل عشرة أشهر، وتلد في الصيف ولا تلد في زمانٍ آخر البتة، وربما غاب تحت الموج في الماء ثلاثين يومًا لا يظهر. وهو محبٌّ لجُرئِه يأكله.

الجمل الذكر يكره قُربَ الفَرَس ويقاتله إذا تمكن منه. الغنم إذا أُنْزِيتْ والريحُ جَنوبٌ تضع أولادها إناثًا، وإن كانت العُروق التي تحت ألسُن الكِباش الفُحُول بيضًا فإن إناث الغنم تضع حُمْلانًا بيضًا، وإن كانت العروق سُودًا

فإنها تضع حُمْلانًا سُودًا، وإن كانت لونَين تكون مختلفة، وإن كانت شُقْرًا خرجتْ شُقْرًا. الغنم إذا هاجت المُسِنَّة منها أولًا فالسنة ذاتُ خِصْب، وإن هاجت الفَتيَّةُ أولًا فالسنة رديئةٌ على الغَنَم.

الكلب السَّلوقيُّ إذا تم له ثمانية أشهر، والأنثى منها تحمل ستين يومًا وربما زادت يومًا أو يومين، وجِراؤها عُمْيٌ اثنين وعشرين يومًا. ومنها ما تحمل ثلاثة أشهر، وتكون جِراؤها عُمْيًا سبعة عشر يومًا. إناث الكلاب تَطْمَث في كل سبعة أيام وتبول جالسة، ومنها ما ترفع رجلها عند البول. ذكور الكلاب ترفع أرجلها للبول إذا تمت لها من ولادتها ثمانية أشهر، وبعضها في ستة أشهر. ذكور الكلاب السلوقية تعيش عشر سنين، وإناثها اثنتي عشرة سنة، ومن أجناسها ما تعيش عشرين سنة، وإناثها كلها أطول أعمارًا من الذكور. وليس تُلقِي الكلاب شيئًا من أسنانها سوى النابَين، فإذا تم للكلب أربعة أشهر أبقاهما.

البقر تُلقي أسنانها لسنتين، وإذا كثر نَزْوُ الذكور منها وحملُ الإناث يكون ذلك علامةَ شتاء وَجُود أمطار وخصب، وإناثُها تَطْمَث. إناث الخيل تضع أولادها في أحد عشر شهرًا أو في الثاني عشر.

والحيَّات رَغِبَةٌ نَهِمة، قليلة شرب الماء لأنها لا تضبط أنفسها، وإذا شمت الشراب فإنها تشتاق إليه جدًّا. الأسد إذا بال رفع رجله كما يرفع الكلب.

البقر تشتهي شرب الماء الصافي النقي، والخيل على الضد فإنها تشرب مثل الجمال الماءَ الكَدِر الغليظ. الغنم في الخريف تشرب الماء الذي تصيبه ريح الشمال، وذلك الوقت أوفق لها. الدُّرَّاج إذا هبت الريح شمالًا تتزاوج وتُخصِب، وإن كانت جنوبًا ساءت حالها ومرضت.

السمك الذي يأوي إلى الشطوط من ناحية البَرِّ ألذُّ من الذي يأوي اللُّجَج. وما كان منها مستطيلَ الجثة فهو يُخصب في الصيف وهبوب الشمال، والعريض الجثة على ضد ذلك. وأكثر ما يُصاد السمك قبل طلوع الشمس لكلَبه على الرعي وطلب الطُّعْم.

الكلب له ثلاثة أمراض: الكَلَب، والذُّبَحَة وهو القاتل لها والنِّقْرس. والداء الذي يقال له الكَلَب يَعرض للجمال أيضًا، فإذا كَلِب الجمل بَخِرَ ولم يؤكل لحمه.

الخيل إذا ألقت حوافرها وقت تَنْصُل نبت لها حافر آخرُ عاجلًا، لأن نباته يطلع مع نصول الحافر، وعلامة ذلك اختلاج الخصية اليمنى. ويعرض للخيل داء شبيه بالكَلَب، وعلامته استرخاء آذانها إلى ناحية أعرافها، وامتناعها من العَلَف، وليس لهذا الداء علاج إلا التسكين.

وجميع أجناس الحيوان إناثها أقل جرأة وأجزع، ما خلا الذئبة فإنها أصعب خُلُقًا وأجرأ من الذكور.

العُقاب والتِّنِّين يتقاتلان، والعُقاب تأكل الحيَّات حيثما وجدتها.

بين العنكبوت وبين الحِرْذَوْن شر، لأن الحرذون يأكل العنكبوت.

عصفور الشَّوْك يقاتل الحمار، لأن الحمار إذا مر بالشوك أفسد عشه، فإذا نهق بالقرب منه وقع بيضه، وإن كان فيه فراخ خرجت منه، فلهذه العلة يطير هذا العصفور حول الحمار وينقره.

الغراب يعادي الثور والحمار وينقرهما. والحيَّة تعادي الخنزير وابن عرس، لأنهما يأكلان الحية حيث وجداها.

الجزء الثاني

الليلة السابعة عشرة

فلما عدتُ إلى المجلس قال: ما تحفظ في تَفْعال وتِفْعال، فقد اشتبها؟ وفزِعتُ إلى ابن عُبيد الكاتب فلم يكن عنده مقنَع، وألقيتُ على مِسكويْه فلم يكن له فيها مطْلع، وهذا دليلٌ على دُثور الأدب، وبَوار العلم، والإعراض عن الكدْح في طلبه.

فقلتُ: قال شيخنا أبو سعيد السيرافي الإمام نضَّر الله وجهه: المصادر كلها على تَفْعَالٍ بفتح التاء، وإنما تجيء تِفْعالٌ في الأسماء وليس بالكثير. قال: وذكر بعضُ أهل اللغة منها ستة عشر اسمًا لا يوجد غيرُها. قال: هاتها.

قلت: منها التِّبْيان والتِّلقاء، ومرَّ تِهْواءٌ من الليل، وتِبْراك وتِعْشار وتِرْبا ع وهي مواضع، وتِمْساح للدابة المعروفة، والتمساح الرجل الكذاب أيضًا. وتِجْفاف، وتِمْثال، وتِمْراد بيت الحَمَام، وتِلْفاق وهو ثوبان يُلْفقان، وتِلْقام: سريع اللَّقْم.

قال: هذا حسَنٌ، فما تقول في تَذْكار، فإن الخوض في هذا المثال إنما كان من أجل هذا الحرف، فإن أصحابنا كانوا في مجلس الشراب فاختلفوا فيه؟ فقلتُ: هذا مصدرٌ، وهو مفتوح. ثم قال: اجمع لي حروفًا نظائر لهذا من اللغة، واشرحْ ما نَدَر منها وعَرَض الشك لكثير من الناس فيها.

فقلتُ: السمعَ والطاعةَ مع الشرف بالخدمة.

وقال أيضًا: حدِّثني عن شيء هو أهم من هذا لي وأخطر على بالي، إني

لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولًا ومذهبًا لا عهد لي به وكنايةً عما لا أَحُقُّه، وإشارةً إلى ما لا يتوضَّح شيءٌ منه؛ يذكر الحروف ويذكر النُّقَط، ويزعم أن الباء لم تُنْقَط من تحت واحدةً إلا بسبب، والتاءَ لم تُنْقط من فوقُ اثنتين إلا لعلة، والألفَ لم تُعَرَّ إلا لغَرَض، وأشباه هذا. وأشهدُ منه في عَرْض ذلك دعوى يتعاظم بها، فما حديثُه؟ وما شأنُه؟ وما دُخْلَتُه؟ وما خَبَرُه؟ فقد بلغني أنك تغشاه وتجلس إليه، وتُكْثر عنده، وتُوَرِّق له، ولك معه نوادر مضحِكة، وبَوادر معجِبة، ومن طالت عِشرتُه لإنسانٍ صدقتْ خبرتُه به، وانكشف أمره له، وأمكنَ اطِّلاعُه على مستكِنِّ رأيه، وخافي مذهبه، وعويص طريقته.

فقلتُ: أيها الوزير، هو الذي تعرفه قبلي قديمًا وحديثًا بالتربية والاختبار والاستخدام، وله منك الأُخُوَّة القديمة والنسبة المعروفة.

قال: دع هذا وصِفْه لي.

قلتُ: هناك ذكاءٌ غالبٌ، وذِهنٌ وقَّادٌ، ويَقَظةٌ حاضرة، وسَوانح متناصرة، ومتَّسَعٌ في فنون النظم والنثر، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة، وحفظ أيام الناس، وسماعٍ للمقالات، وتبصُّرٍ في الآراء والديانات، وتصرُّفٍ في كل فنٍ: إما بالشَّدْو المُوهِم، وإما بالتبصر المُفْهِم، وإما بالتَّناهي المُفْحِم. فقال: فعلى هذا ما مذهبه؟

قلتُ: لا يُنْسب إلى شيء، ولا يُعْرف برَهْط، لجَيَشانه بكل شيء، وغَلَيانه في كل باب، ولاختلاف ما يبدو من بَسْطة تِبْيانه، وسطوته بلسانه. وقد أقام بالبصرة زمانًا طويلًا، وصادف بها جماعةً جامعةً لأصناف العلم

وأنواع الصناعة، منهم أبو سليمان محمد بن مَعْشر البِيسْتِيُّ ويُعرف بالمَقْدِسيّ، وأبو الحسن علي بن هارون الزَّنْجانيُّ، وأبو أحمد المِهْرَجاني، والعوْفيُّ، وغيرهم، فصحبهم وخدمهم. وكانت هذه العصابة قد تآلفتْ بالعِشرة، وتَصافتْ بالصداقة، واجتمعتْ على القُدْس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنهم قرَّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله، والمصير إلى جنته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دُنِّست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنها حاويةٌ للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية. وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفةُ اليونانية والشريعةُ العربية فقد حصل الكمال، وصنفوا خمسين رسالةً في جميع أجزاء الفلسفة: عِلميِّها وعَمليِّها، وأفردوا لها فِهرستًا وسمَّوها رسائل إخوان الصَّفاء وخلَّان الوفاء، وكتموا أسماءهم، وبثُّوها في الوراقين، ولقَّنوها للناس، وادَّعَوا أنهم ما فعلوا ذلك إلا ابتغاء وجهِ الله عز وجل وطلبَ رضوانه، ليخلِّصوا الناسَ من الآراء الفاسدة التي تضر النفوس، والعقائدِ الخبيثة التي تضر أصحابَها، والأفعال المذمومة التي يَشقى بها أهلها. وحَشَوْا هذه الرسائل بالكلم الدينية، والأمثال الشرعية، والحروف المحتمَلة، والطرق الموهِمة.

فقال: هل رأيت هذه الرسائل؟ قلت: قد رأيت جملةً منها، وهي مبثوثةٌ من كل فنٍّ نُتَفًا بلا إشباعٍ ولا كفاية، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات، وقد غرَق الصوابُ فيها لغلبة الخطأ عليها. وحملتُ عدةً منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السِّجِستاني (محمد بن بهرام) وعرضتُها عليه ونظر فيها أيامًا واختبرها طويلًا، ثم ردها عليَّ وقال: تعبوا وما أغنَوا، ونَصِبوا وما أَجْدَوا، وحامُوا وما وَرَدوا، وغَنَّوا وما أَطْربوا، ونسجوا فهلهلوا، ومَشَطوا

ففَلفلوا، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يُستطاع، ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسُّوا الفلسفة التي هي علم النجوم والأفلاك والمِجَسْطِيّ والمقادير وآثار الطبيعة، والموسيقى التي هي معرفة النَّغَم والإيقاعات والنَّقَرات والأوزان، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكميات والكيفيات؛ في الشريعة، وأن يَضمُّوا الشريعة للفلسفة.

* * *

الليلة الثامنة عشرة

وقال مرةً: تعالَ حتى نجعل ليلتنا هذه مُجونية، ونأخذ من الهزل بنصيب وافر، فإن الجِدَّ قد كدَّنا، ونال من قوانا، وملأَنا قبضًا وكربًا، هاتِ ما عندك.
قلتُ: قال حَسْنون المجنون بالكوفة يومًا، وقد اجتمع إليه المُجَّان يصف كلُّ واحد منهم لذَّات الدنيا، فقال: أما أنا فأصف ما جرَّبتُه. فقالوا: هات.
فقال: الأمن والعافية، وصفْعُ الصُّلْع الزُّرْق، وحكُّ الجرب، وأكل الرُّمَّان في الصيف، والطِّلاء في كل شهرين، وإتيان النساء الرُّعْن والصبيانِ الزُّعْر، والمشيُ بلا سراويل بين يدَي من لا تحتشمه، والعربدة على الثقيل، وقلة خلاف من تحبُّه، والتمرُّس بالحمقى، ومؤاخاة ذوي الوفاء، وترك معاشرة السِّفْلة.

إن محمد بن الحسن الجرجاني متقعِّرًا في كلامه، فدخل الحمَّام يومًا فقال للقيِّم: أين الجُلَيْدة التي تسلخ بها الضَّويطة من الإخْفيق؟ قال: فصفع القيِّم قفاه بجلدة النَّوْرة وخرج هاربًا، فلما خرج من الحمَّام وجَّه إلى صاحب الشرطة فأخذ القيمَ وحبسه، فلما كان عشاء ذلك اليوم كتب إليه القيمُ رقعةً يقول فيها: قد أبرمني المحبوسون بالمسألة عن السبب الذي حُبستُ له، فإما خلَّيْتني وإما عرَّفتهم. فوجَّه مَن أطلقه، واتصل الخبر بالفتح فحدَّث المتوكِّل، فقال: ينبغي أن يُغْنَى هذا القيمُ عن الخدمة في الحمَّام. وأمر له بمائتي دينار.

قال: وكان بالبصرة مُخنَّثٌ يَجمع ويعشق بعض المهالبة، فلم يزل المخنَّثُ به حتى أوقعه، قال: فلقِيتُه من غدٍ فقلت له: كيف كانت وقعة الجُفْرة عندكم

البارحة؟ فقال: لمَّا تدانت الأشخاص، ورقَّ الكلام، والتفَّت الساق بالساق، ولُطِّخ باطنُها بالبُزاق، وقُرِع البَيْضُ بالذُّكور، وجَعلت الرماح تَمُور؛ صبر الكريمُ فلم يَجْزَع، وسلَّم طائعًا فلم يُخْدع. ثم انصرف القوم على سِلْم، بأفضل غُنْم، وشُفيت الصدور، وسكنت حرارة النفوس، ومات كلُّ وجْد، وأُصيب مَقْتل كلِّ هَجْر، واتَّصل الحبل، وانْعقد الوصل. قال: فلو كان أَعَدَّ هذا الكلام لمسألتي قبل ذلك بدهر لكان قد أجاد. وقال مرةً: تعالَ حتى نجعل ليلتنا هذه مُجونية، ونأخذ من الهزل بنصيب وافر، فإن الجِدَّ قد كدَّنا، ونال من قوانا، وملأَنا قبضًا وكربًا، هاتِ ما عندك. قلتُ: قال حَسْنون المجنون بالكوفة يومًا وقد اجتمع إليه المُجَّان يصف كلُّ واحد منهم لذَّات الدنيا، فقال: أما أنا فأصف ما جرَّبتُه. فقالوا: هات. فقال: الأمن والعافية، وصفْعُ الصُّلْع الزُّرْق، وحكُّ الجرب، وأكل الرُّمَّان في الصيف، والطِّلاء في كل شهرين، وإتيان النساء الرُّعْن والصبيانِ الزُّعْر، والمشيُ بلا سراويل بين يدَي من لا تحتشمه، والعربدة على الثقيل، وقلة خلاف من تحبُّه، والتمرُّس بالحمقى، ومؤاخاة ذوي الوفاء، وترك معاشرة السِّفْلة.

* * *

الليلة التاسعة عشرة

ورسم بجمع كلماتٍ بوارع، قصارٍ جوامع، فكتبتُ إليه أشياء كنت أسمعها من أفواه أهل العلم والأدب على مرّ الأيام في السفر والحضر، وفيها قرعٌ للحس، وتنبيهٌ للعقل، وإمتاعٌ للروح، ومعونةٌ على استفادة اليقظة، وانتفاعٌ في المقامات المختلفة، وتمثلٌ للتجارب المخلَّفة، وامتثالٌ للأحوال المستأنفة.

من ذلك:

«الحمد لله» مفتاح المذاهب. البِرُّ يستعبِد الحُر. القناعة عز المعسر. الصدقة كنز الموسر. ما انقضت ساعةٌ من أمسك إلا ببضعةٍ من نفسك. درهمٌ ينفع خيرٌ من دينار يضر. من سره الفساد ساءه المعاد. الشقي من جمع لغيره فضنَّ على نفسه بخيره. زد من طول أملك في قصر عملك. لا يغرنَّك صحة نفسك، وسلامة أمسك، فمدة العمر قليلة، وصحة النفس مستحيلة. من لم يعتبر بالأيام لم ينزجر بالمَلام. من استغنى بالله عن الناس أمن من عوارض الإفلاس. من ذكر المنيَّة نسي الأمنيَّة. البخيل حارس نعمته، وخازن ورثته. لكل امرئ من دنياه ما يعينه على عمارة أخراه. من ارتدى بالكفاف اكتسى بالعفاف. لا تخدعنَّك الدنيا بخدائعها، ولا تفتننَّك بودائعها. رب حجة تأتي على مهجة، ورُبَّ فرصة تؤدي إلى غصة. كم من دم سفكه فم! كم إنسان أهلكه لسان! رب حرف أدى إلى حتف. لا تفْرط فتسقط. الزم الصمت وأخْف الصوت. من حسُنت مساعيه طابت مراعيه. من أعز

فَلسه أذل نفسه. من طال عدوانه، زال سلطانه. من لم يستظهر باليقظة، لم ينتفع بالحفظة. من استهدى الأعمى عمي عن الهدى. من اغتر بمِحاله قصر في احتياله. زوال الدول باصطناع السِّفَل. من ترك ما يعنيه دُفع إلى ما لا يعنيه. ظلم العمال من ظُلمة الأعمال. من استشار الجاهل ضل، ومن جهل موضع قدمه زل. لا يغرنك طول القامة مع قصر الاستقامة، فإن الذرة مع صغرها أنفع من الصخرة على كبرها. تجرع من عدوك الغصة إن لم تنل منه الفرصة، فإذا وجدتها فانتهزها قبل أن يفوتك الدَّرَك أو يصيبك الفلَك، فإن الدنيا دولٌ تبنيها الأقدار ويهدمها الليل والنهار. من زرع الإحن حصد المحن. من بعد مطمعه قرب مصرعه. الثعلب في إقبال جده يغلب الأسد في استقبال شده. رب عطب تحت طلب. اللسان رِقُّ الإنسان. من ثمرة الإحسان كثرة الإخوان. من سأل ما لا يجب أجيب بما لا يحب، وأنشدتُ:

وليس لنا عيبٌ سوى أن جُودنا ... أضرَّ بنا والبأسَ من كل جانبِ
فأفنى الندى أموالنا غير ظالمٍ ... وأفنى الرَّدَى أعمارنا غير عائب
أبونا أبٌ لو كان للناس كلهم ... أبٌ مثله أغناهم بالمناق

* * *

الليلة العشرون

وقال لي مرة أخرى: اكتب لي جزءًا من الأحاديث الفصيحة المفيدة. فكتبت: قال مالك بن عمارة اللخمي: كنت أجالس في ظل الكعبة أيام الموسم عبد الملك بن مروان وقبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير، وكنا نخوض في الفقه مرةً وفي الذكر مرةً وفي أشعار العرب وآثار الناس مرةً، فكنت لا أجد عند أحدٍ منهم ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع في المعرفة والتصرف في فنون العلم والفصاحة والبلاغة، وحسن استماعه إذا حُدِّث وحلاوة لفظه إذا حدَّث، فخلوت معه ذات ليلة فقلت: والله إني لمسرورٌ بك لما أشاهده من كثرة تصرفك وحسن حديثك وإقبالك على جليسك. فقال: إنك إن تعش قليلًا فسترى العيون طامحة إليَّ والأعناق قاصدةً نحوي، فلا عليك أن تُعمل إليَّ ركابك. فلما أفضت إليه الخلافة شخصت أريده، فوافيته يوم جمعة وهو يخطب الناس فتصديت له، فلما وقعت عينه عليَّ بَسَر في وجهي وأعرض عني، فقلت: لم يُثبتني معرفةً ولو عرفني ما أظهر نُكرة. لكنني لم أبرح مكاني حتى قُضيت الصلاة ودخل، فلم ألبث أن خرج الحاجب إليَّ فقال: مالك بن عمارة. فقمت فأخذ بيدي وأدخلني عليه، فلما رآني مد يده إليَّ وقال: إنك تراءيت لي في موضع لم يجُز فيه إلا ما رأيت من الإعراض والانقباض، فمرحبًا وأهلًا وسهلًا كيف كنت بعدنا؟ وكيف كان مسيرك؟ قلت: بخير، وعلى ما يحبه أمير المؤمنين. قال: أتذكر ما كنتُ قلتُ لك؟ قلت: نعم، وهو الذي أعملني إليك. فقال: والله ما هو بميراثٍ ادَّعيناه ولا أثرٍ وعيناه، ولكني أخبرك عن نفسي خصالًا سَمَتْ

بها نفسي إلى الموضع الذي ترى: ما لاحيت ذا ودٍّ ولا ذا قرابة قط، ولا شمتُّ بمصيبة عدوٍ قط، ولا أعرضت عن محدثٍ حتى ينتهي، ولا قصدت كبيرةً من محارم الله متلذذًا بها وواثبًا عليها، وكنت من قريش في بيتها ومن بيتها في وسطه، فكنت آمل أن يرفع الله مني وقد فعل، يا غلام بوئه منزلًا في الدار. فأخذ الغلام بيدي وقال: انطلق إلى رحلك. فكنت في أخفض حال وأنعم بال، وكان يسمع كلامي وأسمع كلامه، فإذا حضر عَشاؤه أو غداؤه أتاني الغلام وقال: إن شئتَ صرتَ إلى أمير المؤمنين فإنه جالس. فأمشي بلا حذاء ولا رداء فيرفع مجلسي، ويقبل على محادثتي، ويسألني عن العراق مرة وعن الحجاز مرة، حتى مضت لي عشرون ليلة، فتغديت عنده يومًا فلما تفرق الناس نهضت للقيام فقال: على رسلك أيها الرجل، أيُّ الأمرين أحب إليك: المُقام عندنا ولك النَّصَفة في المعاشرة والمجالسة مع المواساة، أم الشخوص ولك الحباء والكرامة؟ فقلت: فارقت أهلي وولدي على أن أزور أمير المؤمنين، فإن أمرني اخترت فِناءه على الأهل والولد. قال: بل أرى لك الرجوع إليهم، فإنهم متطلعون إلى رؤيتك، فتجدد بهم عهدًا ويجددون بك مثله، والخيار في زيارتنا والمقام فيهم إليك، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار وكسوناك وحملناك، أتُراني ملأت يدك أبا نصر؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أراك ذاكرًا لما رويت عن نفسك. قال: أجل، ولا خير فيمن ينسى إذا وعد. ودِّع إذا شئت صحبتك السلامة.

قال الوزير: ما أحلى هذا الحديث! هات ما بعده.

قلت: قال يحيى بن أبي يعلى: لما قدم المال من ناحية عمر بن عبد العزيز رحمه الله على أبي بكر بن حزم قسمه بين الناس في المدينة، فأصاب كل إنسان

خمسين دينارًا، فدعتني فاطمة بنت الحسين عليه السلام فقالت: اكتب. فكتبت: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من فاطمة بنت الحسين، سلام الله عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد؛ فأصلح الله أمير المؤمنين وأعانه على ما تولاه وعصم به دِينه، فإن أمير المؤمنين كتب إلى أبي بكر بن حزم أن يقسم فينا مالًا من الكتيبة، ويتحرى بذلك ما كان يصنع مَن قبله من الأئمة الراشدين المهديين، وقد بلَّغَنا ذلك وقسَم فينا، فوصل الله أمير المؤمنين، وجزاه من والٍ خير ما جزى أحدًا من الولاة، فقد كانت أصابتنا جفوةٌ، واحتجنا إلى أن يُعمل فينا بالحق. فأقسم بالله يا أمير المؤمنين لقد اختدم من آل رسول الله ﷺ من لا خادم له، واكتسى من كان عاريًا، واستقر من كان لا يجد ما يستقرُّ به. وبعثَتْ إليه رسولًا.

قال يحيى: فحدثني الرسول قال: قدمت الشام عليه، فقرأ كتابها وإنه ليحمد الله ويشكره، فأمر لي بعشرة دنانير، وبعث إلى فاطمة خمسمائة دينارٍ، وقال: استعيني بها على ما يُعْوزكِ. وكتب إليها كتابًا يذكر فيه فضلها وفضل أهل بيتها ويذكر ما فرض الله لهم من الحق.

فرقَّ الوزير عند هذا الحديث وقال: أذكرتني أمر العَلَوِيَّة. وأخذ القلم واستمد من الدواة وكتب في التذكرة شيئًا، ثم أرسل إلى نقيب العلوية العمري في اليوم الثاني بألف دينار حتى تفرق في آل أبي طالب، وقال لي: هذا من بركة الحديث.

ثم قال: كيف تطاول هؤلاء القوم إلى هذا الأمر مع بُعدهم من رحم رسول الله صلى الله عليه.

* * *

الليلة الحادية والعشرون

وسأل مرة عن المغنِّي إذا راسله آخر لِمَ يجب أن يكون ألذ وأطيب وأحلى وأعذب؟

فكان من الجواب: إن أبا سليمان قال في جواب هذه المطالب ما يمنع من اقتضاب قولٍ وتكلف جواب، ذكر أن المسموع الواحد إنما هو بالحس الواحد، وربما كان الحس الواحد أيضًا غليظًا أو كدرًا فلا يكون لنيله اللذة به بسطٌ ونشوٌ ولذاذة، وكذلك المسموع ربما لم يكن في غاية الصفاء على تمام الأداء بالتقطيع الذي هو نفس في الهواء، فلا تكون أيضًا إنالته للذة على التمام والوفاء، فإذا ثنِّي المسموع - أعني توحَّد النغم بالنغم - قوي الحس المدرك، فنال مسموعين بالصناعة ومسموعًا واحدًا بالطبيعة. والحس لا يعشق المواحدة والمناسبة والاتفاق إلا بعد أن يجدها في المركَّب، كما أن العقل لا يعشق إلا بعد أن ينالها في فضاء البسيط، فكلما قوي الحس باستعماله التذَّ صاحبه بقوته حتى كأنه يسمع ما لم يسمع بحسٍّ أو أكثر، وكما أن الحس إذا كان كليلًا كان الذي يناله كليلًا، كذلك الحس إذا كان قويًّا كان ما يناله قويًّا.

قال: هذا كله موهوبٌ للحس فما للعقل في ذلك؟ فإنا نرى العاقل تعتريه دهشةٌ وأريحية واهتزاز.

قلت: قد أتى على مجموع هذا ومعرفته أبو سليمان في مذاكرته لابن خمار، وذكر أن من شأن العقل السكون ومن شأن الحس التهيج، ولهذا

يوصف العاقل بالوقار والسكينة ومن دونه يوصف بالطيش والعجرفة، والإنسان ليس يجد العقل وجدانًا فيلتذ به وإنما يعرفه إما جملةً وإما تفصيلًا، أعني جملةً بالرسم وتفصيلًا بالحد، ومع ذلك يشتاق إلى العقل ويتمنى أن يناله ضربًا من النيل ويجده نوعًا من الوجدان، فلما أبرزت الطبيعة الموسيقى في عرض الصناعة بالآلات المهيأة، وتحركت بالمناسبات التامة والأشكال المتفقة أيضًا، حدث الاعتدال الذي يشعر بالعقل وطلوعه وانكشافه وانجلائه، فبهر الإحساس وبث الإيناس وشوَّق إلى عالم الروح والنعيم وإلى محل الشرف العميم، وبعث على كسب الفضائل الحسية والعقلية، أعني الشجاعة والجود والحلم والحكمة والصبر، وهذه كلها جماع الأسباب المكملة للإنسان في عاجلته وآجلته، وبالواجب ما كان ذلك كذلك، لأن الفضائل لا تقتنى إلا بالشوق إليها والحرص عليها والطلب لها، والشوق والطلب والحرص لا تكون إلا بمشوقٍ وباعثٍ وداعٍ، فلهذا برزت الأريحية والهزة والشوق والعزة، فالأريحية للروح والهزة للنفس والشوق للعقل والعزة للإنسان. ومما يجب أن يُعلم أن السمع والبصر أخص بالنفس من الإحساسات الباقية، لأنهما خادما النفس في السر والعلانية ومؤنساها في الخلوة وممداها في النوم واليقظة، وليست هذه الرتبة لشيء من الباقيات، بل الباقيات آثارها في الجسد الذي هو مطية الإنسان. لكن الفرق بين السمع والبصر في أبواب كثيرة: ألطفها أن أشكال المسموع مركبةٌ في بسيط وأشكال المبصر مبسوطة في مركب.

* * *

الليلة الثانية والعشرون

وقال لي مرة أخرى: ارْوِ لي شيئًا من كلام أبي الحسن العامري، فإني أرى أصحابنا يرذلونه ويذِيلونه، فلا يرون له في هذه العصبة قدمًا ولا يرفعون له في هذه الطائفة علَمًا.

فقلت: كان الرجل لكزازته وغلظ طباعه وجفاء خلقه ينفر من نفسه ويغري الناس بعرضه، فإذا طلب منه الفن الذي قد خُص به وطولب بتحقيقه وُجد على غاية الفضل.

فمن كلامه قوله: الطبيعة تتدرج في فعلها من الكليات البسيطة إلى الجزئيات المركبة، والعقل يتدرج من الجزئيات المركبة إلى البسائط الكلية، والإحاطة بالمعاني البسيطة تحتاج إلى الإحاطة بالمعاني المركبة ليُتوصل بتوسطها إلى استثباتها، والإحاطة بالمعاني المركبة تحتاج إلى الإحاطة بالمعاني البسيطة ليُتوصل بتوسطها إلى تحقيق إثباتها. وكما أن القوة الحسية عاجزةٌ بطباعها عن استخلاص البسائط الأوائل، بل تحتاج معها إلى القوة العاقلة، وإن قويت لصار العقل فضلًا، كذلك أيضًا القوة العاقلة لا تقوى بذاتها على استثبات المركبات إلا من جهة القوة الحساسة، ولو قويت عليه لصار الحس فضلًا للعاقلة.

قال: هذا كلامٌ بارعٌ من صدرٍ واسع وأحب أن تزيدني من نمطه. قلت: وقال أيضًا: الكلي مفتقرٌ إلى الجزئي لا لأن يصير بديمومته محفوظًا بل لأنْ يصير بتوسطه موجودًا، والجزئي مفتقر إلى الكلي لا لأن يصير بتوسطه موجودًا، بل لأن يصير بديمومته محفوظًا.

* * *

الليلة الثالثة والعشرون

وكان الوزير رسم بكتابة لُمعٍ من كلام الرسولﷺ، فأفردت ذلك في هذه الورقات، وهي: قال ﷺ: «أشد الأعمال ثلاثة: إنصاف الناس من نفسك، ومواساة الأخ من مالك، وشكر الله تعالى على كل حال.» وقال الواقدي: لما غالظ خالد بن الوليد عبد الرحمن بن عوف قال النبيﷺ: «يا خالد، ذروا لي أصحابي، لو كان لك أُحدٌ ذهبًا تنفقه قراريط في سبيل الله لم تدرك غدوةً أو روحةً من عبد الرحمن.»

وقال عليه السلام: «إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة تبشبش الله إليه وإن أخرها أعرض عنه.»

وقال عليه السلام: «إنما فَدَك طعمةٌ أطعمنيها الله حياتي ثم هي بين المسلمين.»

وقال عليه السلام: «المقوِّم قد يأثم ولا يغرم.»

وقال عليه السلام في دعائه: «اللهم اجمع على الهدى أمرنا، وأصلح ذات بيننا، وألف بين قلوبنا، واجعل قلوبنا كقلوب خيارنا، واهدنا سواء السبيل، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، واصرف عنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وذرياتنا ومعايشنا، اللهم اجعلنا شاكرين لنعمتك وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم!»

وقيل له ﷺ: إن فلانًا استشهد. فقال: «كلا، إن الشملة التي أخذها من الغنائم يوم حنين اشتعلت عليه نارًا.»

وقال ﷺ: «من اطَّلع من صُبْر بابٍ ففقِئت عينُه فهي هدَر.»

وقال ﷺ لرجل يذبح شاةً: «ارهِف شفْرتك، فإذا فريْت فأرِحْ ذبيحتك ودعها تخُبُّ وتشخُب، فإن ذلك أمرى للدم وأحلى للحم.»

وقال عليه السلام: «خير الناس الغنيُّ الحفيُّ التقيُّ.»

وقال: «التاجر الصدوق إن مات في سفره كان شهيدًا، أو في حضَره كان صدّيقًا.»

وقال ﷺ: «ظهر المؤمن مِشْجبه، وبطنه خِزانته، ورجله مطيته، وذخيرته ربه.»

وقال ﷺ: «ما نقص مالٌ من صدقة، فتصدقوا. ولا عفا رجلٌ عن مظلمةٍ إلا زاده الله عز وجل عزًّا وعفوًا، فاعفوا. ولا فتح رجلٌ على نفسه باب مسألةٍ إلا فتح الله عليه سبعين بابًا من الفقر، فاستعفوا.»

وقال عليه السلام: «أجود الأعمال الجود في العسر، والقصد في الغضب، والعفو عند المقدرة.»

وقال عليه السلام: «إن بين مصراعَي باب الجنة مسيرة مائة عام، وليأتينَّ عليه يومٌ وهو كظيظٌ من الزحام.»

* * *

الليلة الرابعة والعشرون

وجرى حديث الفيل ليلةً فأكثرَ من حضر وصفَه بما لم يكن فيه فائدةٌ تعاد، ولا غريبةٌ تستفاد. فحكيتُ: إن العلماء بطبائع الحيوان ذكروا أن الفيلة لا تتولد إلا في جزائر البحار الجنوبيَّة وتحت مدار برج الحَمَل، والزَّرافة لا تكون إلا في بلاد الحبشة، والسَّمُّور وغزال المسك لا يكونان إلا في الصحارى الشرقية الشمالية. وأما الصقور والنسور والبُزَاة وما شاكلها من الطير فإنها لا تُفرِخ إلا في رءوس الجبال الشامخة، والعُقاب والنعام لا تُفْرِخ إلا في البراريِّ والقفار والفلوات، والوطواط والطِّيطَوَى وأمثالهما من الطير لا تفرخ إلا على سواحل البحار وشطوط الأنهار والبطائح والآجام، والعصافير والفواخت وما شاكلها من الطير لا تُفْرِخ إلا بين الأشجار والدِّحال والقرى والبساتين.

وحدَّث ابن الأعرابي عن هشام بن سالم، وكان مسنًّا من رهط ذي الرُّمَّة، قال: أكلتْ حيةٌ بيض مُكَّاء فجعل المكاء يشرشر على رأسها ويدنو منها، حتى إذا فتحت فاها تريده وهمت به ألقى في فيها حَسَكةً، فأخذت بحلقها حتى ماتت.

فقال حرس الله نفسه: من أين للحيوان غيرِ الإنسان هذه الفطنة وهذه الفضيلة وهذه الجُرْأَة وهذه الحيلة؟! فقلتُ: شيخنا أبو سليمان يقول في هذه الأيام، وقد جرى حديث الحيوان وعجائب أفاعيله: إن الإحساسات التي للحيوان على أصنافه لها غرضٌ عظيم، وبذلك الغرض لها تفاوتٌ عظيم ظاهرٌ

وخافٍ، وأفعالٌ معهودة ونادرة، ولها أخلاق معروفة، ومعارف موصوفة. ولولا ذلك ما كان يقال: أَصْوَل من جمَل، وأغدر من ذئب، وأروغ من ثعلب، وأجبن من صِفْرِد، وأجمع من ذَرَّة، وآلف من كلب، وأهدَى من قَطاة، وأحذر من عقعق، وأزهَى من غراب، وأظلم من حية، وأشدُّ عداوةً من عقرب، وأخبث من قرد، وأحمق من حُبارَى، وأكذب من فاختة، وألأم من كلبٍ على جيفة، وأعقُّ من ضب، وأبرُّ من هرة، وأنفر من ظليم، وأجرأ من ليث، وأحقد من فيل ... وعلى هذا.

قال: وكما أن بين آحاد نوع الإنسان تفاوتًا في الأخلاق، كذلك بين آحاد نوع الحيوان تفاوت. وكما أنه يزل بعضُ العقلاء فيركب ما لا يُظنُّ بمثله لعقله، كذلك يزلُّ ويغلَط بعضُ الحمقى فيأتي بما لا يُحسَب أن مثله يهتدي إليه، فليس العقل بحاظرٍ على صاحبه أن ينذُر منه ما يكون من الحيوان. وأصناف الحيوان من الناس وغير الناس تتقاسم هذه الأخلاق بضروب المزاج المختلفة في الأزمان المتباعدة والأماكن المتنازحة، تقاسمًا محفوظ النِّسب بالطبيعة المستولية، وإن كان ذلك التقاسم مجهول النِسب للغموض الذي يغلب عليه. وإذا عُرف هذا الشرح وما أشبهه مما يزيده وضوحًا، زال التعجب الناشئ من جهل العلة وخفاء الأمر.

قال: ومن العجب أنَّا إذا قلنا: أروغ من ثعلب، وأجبن من صفرد، وأحقد من فيل؛ أن هذا الرَّوْغ وهذا الجبن وهذا الحقد في هذه الأصناف ليست لتكون عُدَّةً لها مع نوع الإنسان، ولكن لتتعاطى أيضًا بينها، وتستعملها عند الحاجة إليها. وكما يشبَّه إنسانٌ لأنه لصٌّ بالفأرة، أو بالفيل لأنه حقود، أو بالجمل لأنه صَئول؛ كذلك يشبَّه كلُّ ضرب من الحيوان في

فعله وخُلقه وما يظهر من سِنْخه بأنه إنسان. ويقال للبليد من الناس: كأنه حمار، ويقال للذكي من الخيل: كأنه إنسان. ولولا هذا التمازج في الأصل والجوهر والسِّنْخ والعنصر، ما كان هذا التشابه في الفرع الظاهر والعادةِ الجارية بالخبر والنظر.

فقال: هذا كلامٌ لا مزيد عليه.

* * *

الليلة الخامسة والعشرون

وقال أدام الله دولته ليلةً: أُحِبُّ أن أسمع كلامًا في مراتب النظْم والنثر، وإلى أي حدٍّ ينتهيان، وعلى أي شكل يتفقان، وأيهما أجمع للفائدة، وأرجع بالعائدة، وأدخل في الصناعة، وأولى بالبراعة. فكان الجواب: إنَّ الكلام على الكلام صعب. قال: ولِمَ؟ قلت: لأنَّ الكلام على الأمور المعتمَد فيها على صور الأمور وشُكولها التي تنقسم بين المعقول وبين ما يكون بالحس ممكن، وفضاء هذا متسع والمجال فيه مختلف. فأما الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه، ويلتبس بعضُه ببعضه، ولهذا شق النحو وما أشبه النحو من المنطق، وكذلك النثر والشعر، وعلى ذلك.

وقد قال الناس في هذين الفنَّين ضروبًا من القول لم يَعدوا فيها من الوصف الحسن، والإنصاف المحمود، والتنافس المقبول، إلا ما خالطه من التعصب والمَحْك، لأن صاحب هذين الخُلقين لا يخلو من بعض المكابرة والمغالطة، وبقدر ذلك يصير له مدخلٌ فيما يراد تحقيقه من بيان الحجة أو قصورها عما يرام من البلوغ بها، وهذه آفةٌ معترضةٌ في أمور الدين والدنيا، ولا مطمع في زوالها، لأنها ناشئةٌ من الطبائع المختلفة، والعادات السيئة، لكني مع هذه الشوكة الحادة، والخطة الكادَّة؛ أقول ما وعيتُه عن أرباب هذا الشأن والمنتمين لهذا الفن، وإن عَنَّ شيءٌ يكون شكلًا لذلك وصلته به تكميلًا للشرح، واستيعابًا للباب، وصمدًا للغاية، وأخذًا بالحِياطة، وإن كان المنتهى منه غير مطموع فيه، ولا موصولٍ إليه، والله المعين.

قال شيخنا أبو سليمان: الكلام ينبعث في أول مبادئه إما من عفو البديهة، وإما من كد الروية، وإما أن يكون مركبًا منهما وفيه قواهما بالأكثر والأقل. ففضيلة عفو البديهة أنه يكون أصفى، وفضيلة كد الروية أنه يكون أشفى، وفضيلة المركب منهما أنه يكون أوفى. وعيب عفو البديهة أن تكون صورة العقل فيه أقل، وعيب كد الروية أن تكون صورة الحس فيه أقل، وعيب المركَّب منهما بقدر قسطه منهما: الأغلب والأضعف. على أنه إن خلَص هذا المركب من شوائب التكلف، وشوائن التعسف، كان بليغًا مقبولًا، رائعًا حلوًا، تحتضنه الصدور، وتختلسه الآذان، وتنتهبه المجالس، ويتنافس فيه المنافس بعد المنافس. والتفاضل الواقع بين البلغاء في النظم والنثر إنما هو في هذا المركب الذي يُسمَّى تأليفًا ورصفًا. وقد يجوز أن تكون صورة العقل في البديهة أوضح وأن تكون صورة الحس في الروية ألوح، إلا أن ذلك من غرائب آثار النفس ونوادر أفعال الطبيعة، والمدار على العمود الذي سلف نعته ورسا أصله.

وسمعت أبا عائذٍ الكرخي صالح بن علي يقول: النثر أصل الكلام والنظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع والفرع أنقص من الأصل، لكن لكل واحد منهما زائناتٌ وشائنات، فأما زائنات النثر فهي ظاهرةٌ، لأن جميع الناس في أول كلامهم يقصدون النثر، وإنما يتعرضون للنظم في الثاني بداعيةٍ عارضة، وسببٍ باعث، وأمرٍ معين.

قال: ومن شرفه أيضًا أن الكتب القديمة والحديثة النازلة من السماء على ألسنة الرسل بالتأييد الإلهي مع اختلاف اللغات كلها؛ منثورةٌ مبسوطة، متباينة الأوزان، متباعدة الأبنية، مختلفة التصاريف، لا تنقاد للوزن، ولا تدخل في الأعاريض. هذا أمرٌ لا يجوز أن يقابله ما يدحضه، أو يُعترض عليه بما يُخْرِضه.

* * *

الليلة السادسة والعشرون

ثم قال: وما أمثلة الكلمات القصار التي أومأ إليها ذلك الشيخ؟ فكان من الجواب: إن هذا الباب واسع، نحو قول القائل: ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار. كل عزيزٍ دخل تحت القُدرة فهو ذليل. غنم من أدَّبته الحكمة، وأحكمته التجربة. التضاغن رائد التباين. المرء ما عاش في تجريب. الدهر يومٌ ويومُ والعيش عذلٌ ولومُ وأكثر أسباب النجاح مع اليأس، من لم يقدمه حزم أخَّره عجز. كم مستدرَجٍ بالإحسان إليه، ومغترٍّ باليسر عليه.

الحرب مَتْلَفة العباد، مُذهبةٌ للطارف والتِّلاد. ليس المُقلُّ عن الزمان براضي، من ضاق صدره اتسع لسانه. وحسبك داءً أن تصح وتسلما، العيال سُوس المال. الموت الفادح خيرٌ من الزي الفاضح. احذروا نفاد النعم فما كل شاردٍ مردود. خير الأمور أوساطها. يكفيك من شرٍّ سماعُه. الكريم لا يلين على قسر ولا يُقتسر على يُسر. ما أدرك النمَّام ثارًا ولا محا عارًا. من عُرف بالحكمة لاحظته العيون بالهيبة. البِطنة تُذهب الفطنة. إن المقدرة تُذهب الحفيظة. من ثقُل على صديقه خفَّ على عدوه. زيادة لسان على عقلٍ خدعة، وزيادة عقلٍ على منطق هُجنة. وحاجة من عاش لا تنقضي من أطاع هواه، أعطى عدوَّه مناه. عند الشدائد تذهب الأحقاد، احذر صرَعات البغي وفلتات المزاح. ومن يسأل الصُّعلوكَ أين مذاهبه؟ المرء يعجز لا المحالة، ذل الطالب بقدر حاجته. إذا ازدحم الجواب خفي الصواب. الكريم للكريم

مُجِلٌّ. موتٌ في قوةٍ وعزٍّ خيرٌ من حياةٍ في ذلٍّ وعجز. عدل السلطان خيرٌ من خصب الزمان. من توقَّى سلِم ومن تهور ندم. من أسرع إلى الناس بما يكرهون، قالوا فيه ما لا يعلمون. الضُّر خيرٌ من الفاقة. عَيٌّ صامت خيرٌ من عيٍّ ناطق. ربما سوَّد المالُ غير السيد، وقوَّى غير الأيِّد. وهل يدفع ريبَ المنية الحيَل؟ الموت حتمٌ في رقاب العباد، كفى بالإقرار بالذنب عذرًا، وبرجاء العفو شافعًا. قليلٌ يُوعَى، خيرٌ من كثير يُنسى. ليس على طول الخِدَم ندم، ومن وراء المرء ما لم يعلم. مروءتان ظاهرتان: الرئاسة والفصاحة. من أطال الأمل أساء العمل. لا تَكلَّفْ ما كُفِيت، ولا تضيع ما وَليت. احتمل من أدلَّ عليك، واقبل ممن اعتذر إليك. إن الشجاعة مقرونٌ بها العطب، إن الكرام على ما نابهم صُبُرُ، لو سكت من لا يعلم سقط الاختلاف. لا عُذر في غَدر. ليس من العدل سرعة العَذْل. أقبح عمل المقتدرين الانتقام. شرٌّ من الموت ما يُتمنَّى له الموت. من جاع جشِع. المكيدة في الحرب أبلغ من النجدة. لك من دنياك ما أصلح مثواك. من أحبَّ أن يطاع لا يسألُ ما لا يستطاع. إذا غلبتْك نفسُك بما تظن فاغلبْها بما تستيقن. الرد الجميل أحسن من المطْل الطويل. القبر خيرٌ من الفقر. شفيع المذنب إقراره، وتوبته اعتذاره. صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار. لا كثير مع تبذير، ولا قليل مع تقدير. من صان لسانَه نجا من الشر كله.

* * *

الليلة السابعة العشرون

وقال أدام الله أيامه في ليلة أخرى: كنت أحب أن أسمع كلامًا في كُنه الاتفاق وحقيقته، فإنه مما يحار العقل فيه، ويزلُّ حزم الحازم معه، وأحب أيضًا أن أسمع حديثًا غريبًا فيه. فكان من الجواب: إن الرواية في هذا الباب أكثر وأفشى من الاطِّلاع على سره، والظفر بمكنونه. فقال: هات ما يتعلق بالرواية. قلت: حكى لنا أبو سليمان في هذه الأيام أن ثيودسيوس ملك يونان كتب إلى كُنتس الشاعر أن يزوِّده بما عنده من كتب فلسفية، فجمع ماله في عَيْبةٍ ضخمة، وارتحل قاصدًا نحوه، فلقي في تلك البادية قومًا من قطاع الطريق فطمعوا في ماله وهموا بقتله، فناشدهم الله ألا يقتلوه وأن يأخذوا ماله ويخلوه فأبوا، فتحير ونظر يمينًا وشمالًا يلتمس معينًا وناصرًا فلم يجد، فرفع رأسه إلى السماء ومد طرفه في الهواء، فرأى كراكيَّ تطير في الجو محلقة، فصاح: أيتها الكراكيُّ الطائرة، قد أعجزني المعين والناصر فكوني الطالبة بدمي والآخذة بثأري. فضحك اللصوص، وقال بعضهم لبعض: هذا أنقص الناس عقلًا، ومن لا عقل له لا جناح في قتله. ثم قتلوه وأخذوا ماله واقتسموه وعادوا إلى أماكنهم. فلما اتصل الحديث بأهل مدينته حزنوا وأعظموا ذلك، وتبعوا أثر قاتله واجتهدوا فلم يُغنوا شيئًا ولم يقفوا على شيء. وحضر اليونانيون وأهل مدينته إلى هيكلهم لقراءة التسابيح والمذاكرة بالحكمة والعظة، وحضر الناس من كل قطر وأوب وجاء القتلة واختلطوا بالجمع، وجلسوا عند بعض أساطين الهيكل. فهم على ذلك إذ مرت بهم كراكيُّ تتناغى وتصيح، فرفع اللصوص أعينهم ووجوهَهم إلى الهواء ينظرون

ما فيه فإذا كراكي تصيح وتطير وتسد الجو فتضاحكوا، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء طالِبو دم كُنتس الجاهل على طريق الاستهزاء فسمع كلامهم بعضُ من كان قريبًا منهم، فأخبر السلطان فأخذهم وشدَّد عليهم وطالبهم فأقرُّوا بقتله فقتلهم. فكانت الكراكي المطالبةَ بدمه، لو كانوا يعقلون أن الطالب لهم بالمرصاد.

ولقد حكى أبو الحسن العُرضي في أمر الاتفاق شيئًا ظريفًا عن بعض إخوانه، قال: خرجنا إلى بعض المتنزهات ومعنا جَرٌّ نصيد به السُّمَانَى وكنا جماعة، فقال حدثٌ كان معنا وكان أصغرنا سنًّا: أنتم تصيدون بجرّ وأنا أصيد بيدي! يقول ذلك على جهة المزح، فرمى بعد قليل فاتفق له أن أثار سُمانَى، فأسرع إليه ونحن لا نعلم أنه أخذ شيئًا، فقلنا له على طريق العبث: احذر الخنزير من غير أن نكون رأينا خنزيرًا فالتفت فزعًا وفرَّ مُوليًا، فاتفق له أن رأى خنزيرًا منه غير بعيد، فأقبل إلينا مسرعًا هاربًا من الخنزير والسُّمانَى بيده وقد صاده.

وكنت في البادية في صفر سنة أربع وخمسين منصرفًا من الحج ومعي جماعةٌ من الصوفية، فلحقَنا جهدٌ من عوَز القوت وتعذُّر ما يُمسك الروح في حديث طويل، إلا أنَّا وصلنا من زُبالة، بالحيلة اللطيفة منَّا، والصنع الجميل من الله تعالى، إلى شيء من الدقيق، فانتعشتْ أنفسنا به، وغنمناه، ورأيناه نفحةً من نفحات الله تعالى الكريم، فجعلناه زادنا وسِرْنا، فلما بلغنا المنزل قعدنا لنمارس ذلك الدقيق، ولقطنا البعَر ودُقاق الحطب، فلما أجمعنا على العجن والمَلْك لم نجد الحُراق وكان عندنا أنه معنا، وأننا قد استظهرناه، فدخلتنا حيرة شديدة، وركبنا غمٌّ غالب، وسففْنا من ذلك الدقيق شيئًا فما ساغ ولا قبلته الطبيعة، وبتنا ليلتنا طاوين ساهرين قد علانا الكمد وملَكنا

الوجوم والأسف، فقال بعضنا: هذا لَمَّا وجدنا الدقيق؟ وأصبحنا ورُكَبنا قد استرخت، وعيوننا قد غارت، وأحدنا لا يحدث صاحبه غمًّا وكربًا، وعدنا إلى ما كنَّا فيه قبلُ بزيادة حسرةٍ من النظر إلى الدقيق، وقال صاحبٌ لنا: نرمي بجراب الدقيق حتى نلقي حمله وثقله في طول هذا الطريق. فقلنا: ليس هذا بصواب، وما يضرنا أن يكون معنا، فلعلنا أن نرى ركبًا أو نلقى حطبًا؟ وكانت البادية خاليةً في ذلك الوقت، لرعبٍ لَحِق قومًا من بني كلاب من جهة أعدائهم، فلم يكن يجتاز بها في ذلك الوقت غريب. وبقينا كذلك إلى اليوم الثالث، ونحن نلاحق ونجاهد في المشي.

فلما كان العصرُ من ذلك اليوم كنت أسير أمام القوم أجرِّئهم وأسألهم، وكنت كالحاطب لهم: «إذا عثَرْنا بحُراقٍ وظفرنا بفتيلة»، فوجدوا خرقةً ملفوفة فيها حُراق فهلَّلوا وكبروا ورفعوا أصواتهم، فقلت كالمتعجب: ما الخبر؟ قالوا: البشرى. قلت: وما ذاك؟ قالوا: هذه خِرقة مُلئت حُراقًا، فلا تسل عمَّا دهانا من الفرح والاستبشار، وثاب إلينا من السرور والارتياح، وزال عنا من الانخزال والانكسار. وقعدنا في مكاننا ذلك، ولقطنا البعَر، وأثرنا الوقود، وأجَّجنا نارًا عظيمة، وملَكْنا الدقيق كله مَلْكةً واحدةً وكان أربعين رِطْلًا، وكان ذلك بلاغنا إلى القادسية. فلما دنونا منها تلقانا بشر من أهلها، وقالوا لنا: كيف سلمتم في هذه الطريق مع العوَز والخوف؟ فقلنا: لطف الله يقرب كلَّ بعيد، ويسهِّل كل شديد، ويصنع للضعيف حتى يتعجب القوي. وليس أحدٌ من خلق الله يجحد هذا القول وينكر هذا الفضل، ويرجع إلى دينٍ وثيقٍ أو واهٍ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ.

* * *

الليلة الثامنة والعشرون

وعُدْتُ ليلةً أخرى وقرأتُ عليه أشياء من هذا الفن، منها: عَقَد هشام بن عبد الملك لسعيد بن عمرو الجُرَشيِّ أيام الترك، فقال سعيد: يا فتح، يا نصر، خذا اللواء. فقال هشام: أعمدًا قلتَ هذا؟ قال: لا، ولكنهما غُلاماي دعوتهما. قال هشام: هو الفتح والنصر إن شاء الله. وكان ذلك كذاك.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يَعْرِض، فمر به حية بن نكَّاز، فقال: لا حاجة لنا في هذا، هذا حية وأبوه يَنْكُز.

ورمى رجلٌ الجمار فأصاب صلعة عمر بحصاةٍ فشجَّه، فقال رجل: أُشْعِرت يا أمير المؤمنين،لا يقوم عمر هذا المقام أبدًا. فكان ذلك كذلك.

وخرج رجل ينظر الحسن بن علي صلوات الله عليه فلقي رجلًا فقال له: ما اسمك؟ قال: عِقال. قال: ابنُ من؟ قال: ابن عَقِيل. قال: من بني مَنْ؟ قال: من بني عُقَيل. قال: عقَلْته عقَلَك الله.

الجزء الثالث

الليلة التاسعة والعشرون

قال الوزير أعز الله نصرَه، وأطاب ذكرَه، وأطار صيتَه ليلةً: أحبُّ أن أسمع كلامًا في قول الله عز وجل: هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، فإن هذا الإيجاز لم يُعْهد في كلام البشر.

فكان من الجواب: إن الإشارة في «الأول» إلى ما بدأ الله به من الإبداع والتصوير، والإبراز والتكوين. والإشارةَ في «الآخِر» إلى المصير إليه في العاقبة على ما يجب في الحكمة من الإنشاء والتصريف، والإنعام والتعريف، والهداية والتوقيف. وقد بان بالاعتبار الصحيح أنه عز وجل لمَّا كان محجَّبًا عن الأبصار ظهرتْ آثاره في صفحات العالَم وأجزائه، وحواشيه وأثنائه، حتى يكون لسانُ الآثار داعيًا إلى معرفته، ومعرفتُه طريقًا إلى قصده، وقصدُه سببًا للمكانة عنده والحُظْوة لديه. على أنه في احتجابه بارز، كما أنه في بروزه محتجِب، وبيان هذا أن الحجاب من ناحية الحس، والبروز من ناحية العقل، فإذا طُلب من جهة الحس وُجِد محجوبًا، وإذا لُحِظ من جهة العقل وُجِد بارزًا. وهاتان الجهتان ليستا له تعالى، ولكنهما للإنسان الذي له الحسُّ والعقل، فصار بهما كالناظر من مكانين، ومن نظر إلى شيءٍ واحدٍ من مكانين كانت نسبتُه إلى المنظور إليه مفترِقة. وإنما شق هذا الأمر على أكثر الناس واختلفوا فيه لأنهم راموا تحقيق ما لا يُحَسُّ بالحس، ولو راموا ذاك بالعقل المحض بغير شَوْبٍ من الحس لكان المَرُوم يسبق الرائم، والمطلوب يلوح قُبالة الطالب من غير شكٍّ لابس، ولا ريبٍ مُوحش، لأنه ليس في العقل والمعقول

شكٌّ، وإنما الريب والشك والظن والتوهم كلها من علائق الحس وتوابع الخِلْقة. ولولا هذه العوارض لما اغبرَّ وجه العقل، ولا علاه شحوب، ولبقي على نَضرته وجماله وحُسنه وبهجته. ولما كان الإنسان مَفيض هذه الأعراض في الأول، صار مفيض هذه الأحوال في الثاني، فاستعار من العقل نورَه في وصف الأشياء الجسمية جهلًا منه وخطأ، واستعار من ظلام الحسّ في وصف الأشياء الرُّوحانية عجزًا منه ونقصًا، ولو وُفِّق لوضع كلَّ شيء موضعه ونَسبه إلى شكله، ولم يرفع الوضيع إلى محل الرفيع، ولم يضع الرفيعَ في موضع الوضيع.

فلما بلغ الحديث هذا الحد، عجِب الوزير وقال: ما أعذبَ هذا المورد! وما أعجب هذا المشهد! وما أَبعد هذا المقصد! وما أرى لمصنّفٍ من الموحِّدين متصرَّفًا في هذا النوع إلا لهذه العِصابة الكريمة المخصوصة باليقظة.

* * *

الليلة الثلاثون

وقال الوزير أدام الله أيامه: سراويل يُذكَّر أم يؤنَّث، ويُصْرف أم لا؟

فكان الجواب أن علي بن عيسى حدثنا عن شيخه ابن السراج قال: سألت المبرِّد فقلتُ: إذا كان الواحد في صيغة الجمع ما يُصْنع به في الصَّرْف في مثل: شعرُه هَرَاميل وهذه سَراويل وما أشبهه؛ فقال: أَلْحِقْه بالجمع فامْنَعه الصرف، لأنه مثله وشبيهه.

قال: وسألت أحمد بن يحيى عن ذلك، فقال: أخبرنا سلَمة عن الفراء قال: ألْحِقه بأحمد فامنعْه الصرْفَ في المعرفة، واصرِفْه في النكرة حتى يكون بين الواحد والجمع فرق.

وسأل فقال: ما واحد المناخِيب والمناجِيب؟ وما حُكْمهما؟

فكان من الجواب: واحد المناخيب مِنْخاب، يُمْدح به ويُذَم، فإذا كان مدحًا فهو مأخوذ من النَّخْب وهو الاختيار، وإذا كان ذمًّا فهو مأخوذٌ من النَّخْبَة وهي الاسْت.

قال: وهكذا المنجاب يكون مدحًا وذمًّا، فإذا كان مدحًا فهو مأخوذٌ من الانتجاب وهو الاختيار، وإذا كان ذمًّا فهو مأخوذٌ من النَّجَب وهو قِشر الشجر.

قال: ما معنى قولهم: امرأةٌ عروبٌ؟

فكان من الجواب أن محمد بن يزيد قال على ما حدثنا به أبو سعيد

وابن السراج عنه: إنه من الأضداد؛ وهي المتحببة إلى زوجها، وهي الفاسدة، مأخوذٌ من قولهم: عَرِبَت مَعِدتُه إذا فَسَدت.

وقال: الضَّهْياء يُمَدُّ ويُقْصَر؟

فكان من الجواب أن ابن الأعرابي قال: الذي حصَّلْتُه عن الأعراب أن الضَّهْياء الممدودة هي التي لا تحيض، وأن المقصورة هي الياسمين، وجمع الأول ضُهْيٌ وجمع المقصور ضَهَايا.

قال: ما معنى المَنْدَلِيّ المطيَّر؟

فكان من الجواب أن ابن الأعرابي قال: هو مقلوب المُطَرَّى.

وقال: أنشِدني غزلًا. فأنشدته ما حضر في الوقت لأعرابي:

أمُرُّ مجنَّبًا عن بيت سَلمى ... ولم أُلْمِمْ به وبه الغليلُ
أمُرُّ مجنِّبًا وهواي فيه ... وطَرْفي عنه منكسرٌ كليلُ
وقلبي فيه مُقْتَتَلٌ فهل لي ... إلى قلبي وقاتِله سبيلُ؟

* * *

الليلة الواحدة والثلاثون

وجرى ليلةً حديث الرأي في الحرب والحزم والتيقظ وقلة الاستهانة بالخصم، فقال ابن عُبيد الكاتب: أنا أستحسن كلامًا جرى أيام الأمين والمأمون؛ وذاك أن علي بن عيسى بن ماهان لما توجه إلى حرب طاهر بن الحسين من بغداد، سأل قومًا وردُوا من الرَّي عن طاهر، فقالوا: إنه مُجِدٌّ. فقال: وما طاهرٌ؟ إنما هو شوكةٌ من أغصاني، وشرارةٌ من ناري. ثم قال لأصحابه: والله ما بينكم وبين أن ينقصِف انقصاف الشجر من الريح العاصفة إلا أن يبلغه عبورُنا عقبةَ هَمَذان، لأن السِّخال لا تقْوى على النِّطاح والثعالبَ لا صبر لها على لقاء الأسود، فإن يُقِم طاهرٌ بموضعه يكن أولَ معرَّض لظُبَاتِ السيوف وأسنَّة الرِّماح. فقال يحيى بن عليٍ لعلي بن عيسى: أيها الأمير، إن العساكر لا تُساس بالتواني، والحروب لا تدبَّر بالاغترار، وإن الشرارة الخفية ربما صارت ضرامًا، والنَّهْلةَ من السيل ربما صارت بحرًا عظيمًا.

فقال: إنما حجب عليَّ بن عيسى عن وثيق الرأي هذا الاستحقارُ بالكلام، والاقتدارُ على اللفْظ، ومن صدق فكرُه في طلب الرأي النافع قلَّ كلامُه بالهَذَر الضائع.

وقال في هذه الليلة: ما رأيتُ من يفي بإحصاء وجوه «فعيل» ومواقعها.

فكان من الجواب أن الأخفش قد ذكر عشْرة أوجه، وهي أكثر ما قدَر عليه، والتصفُّح قد دلَّ على أربعين وجهًا وزيادة.

قال: فما أغرب ما مر بك منها؟ فقيل: فَعِيلٌ بمعنى فَعَل. فقال: هذا

والله غريب، فهات له شاهدًا. فقيل: يقال: مَكَانٌ دَمِيثٌ ودَمَثٌ، ويقينٌ ويقَنٌ، ورصيفٌ ورصَفٌ، وللفرس العتيد للعدْو: العَتَد، والنَّقِيل من العدْو: نَقَل، والخبيط من الورق: خَبَط، وللقديم: قَدَم، والبئر النزيح: نَزَح، وللجسم العميم: عَمَم.

وقال ابن الأعرابي: القَفِيل: الشوك اليابس، والجمع قَفْل. وقال أحمد بن يحيى: هو مني بَعَدٌ أي بعيد، والبَعَد يكون للجمع والواحد.

فعجب وقال: ينبغي أن يُعنَى بهذه الوجوه كلها، فإن الزيادة على مِثل الأخفش ظفرٌ حسَن، وامتيازٌ في الغزارة جميل، وما تفاضلتْ درجات العلماء إلا بتصفُّح الأخير قول الأول واستيلائه على ما فاته.

* * *

ثم حضرتُ فقرأتُ ما بقي من هذا الفن.

قال رجلٌ من فزارة:

تنبح أحيانًا وأحيانًا تهِرُّ وتتمطَّى ساعةً وتقدحِرّْ
تعدُو على الضَّيْف بعودٍ منكسر يسقط عنها ثوبُها وتأْتزر
لو نُحرتْ في بيتها عشر جُزُر لأصبحتْ من لحمهنَّ تعتذرْ
بحَلِفٍ سَحّ ودمعٍ منهمرْ يَفِرُّ مَن قاتلَها ولا تفرّْ

المُقْدَحِرُّ: المتهيئ للسِّباب.

وقال أبو دُلامة الأسَدي:

"قد يُشبع الضيفَ الذي لا يشبعُ من الهَبِيد والجِرادُ تَسَعُ"

"ثم يقول ارضُوا بهذا أو دَعُوا"

وحكى لنا ابن أسادة قال: كان عندنا يعني بأصفهان رجلٌ أعمى يطوف ويسأل، فأعطاه مرةً إنسانٌ رغيفًا فدعا له وقال: أحسن الله إليك، وبارك عليك، وجزاك خيرًا، وردَّ غربتك! فقال له الرجل: ولِمَ ذكرتَ الغربة [في دعائك؟ وما عِلْمك بالغربة؟] فقال: الآن لي ها هنا عشرون سنة ما ناولني أحدٌ رغيفًا صحيحًا.

وقال آخر: يُرَى جارُهم فيهم نحيفًا وضيفُهم يجوع وقد باتوا مِلاءَ المَذاخِر.

قال ابن سلّام: كان يُخبَز في مطبخ سليمان عليه السلام في كل يومٍ ستُّمائة كُرٍّ حنطة، ويُذبح له في كل غداةٍ ستة آلاف ثور وعشرون شاةً، وكان يُطعِم الناس ويُجلِس على مائدته بجانبه اليتامى والمساكين وأبناءَ السبيل، ويقول لنفسه: مسكينٌ بين مساكين.

ولما ورد تِهامة وافى الحرمَ وذبح للبيت طول مُقامه بمكة كلَّ يومٍ خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة. وقال لمن حضر: إن هذا المكان سيخرج منه نبيٌّ صفته كذا وكذا.

وقال طفيلي: إذا حُدِّثتَ على المائدة فلا تزدْ في الجواب على نعم، فإنك تكون بها مؤانسًا لصاحبك، ومُسِيغًا للُقمتِك، ومُقبلًا على شأنك.

وقيل لأعرابي: أيُّ شيءٍ أحدُّ؟ قال: كبدٌ جائعة، تُلقِي إلى أمعاء ضالعة.

وقيل لآخَر: أيُّ شيء أحدُّ؟ قال: ضِرسُ جائع، يُلقِي إلى مِعًى ضالع.

قال النبيﷺ فيما رواه جابر بن عبد الله: هلاك الرجل أن يحتقر ما في بيته أن يقدِّمه إلى ضيفه، وهلاكُ الضيف أن يحتقر ما قُدِّم إليه.

ذكر الأصمعي أن أعرابيًّا خرج في سفر ومعه جماعة، فأرمل بعضُهم من الزاد، وحضر وقت الغدَاء وجعل بعضُهم ينتظر بعضًا بالغداء، فلما أبطأ ذلك عليهم عَمَد بعضهم إلى زادِه فألقاه بين يدي القوم فأقبلوا يأكلون، وجلس صاحب الزاد بعيدًا للتوفير عليهم، فصاح به أعرابي: يا سُؤْدَدَاه! وهل شرفٌ أفضلُ من إطعام الطعام والإيثار به في وقت الحاجة إليه؟ لقد آثرتَ في مَخْمَصةٍ ويوم مَسْغَبة، وتفرَّدتَ بمكرُمة قعد عنها مَن أَرَى من نُظَرائك، فلا زالت نِعم الله عليك غاديةً ورائحة!

وفي مِثله يقول حاتمٌ الطائيُّ:

أكفُّ يـدي من أن تنـال أكفَّهمْ إذا ما مـددْناها وحـاجـاتُنا معًا
وإني لأَسْــتَحْيِي رفيقيَ أن يرى مكـانَ يـدي من جـانـب الزاد

قال: المخمصة: المجاعة. والخَمْص: الجوع.

وأنشد ابن الأعرابي:

وإن قِرَى أهـل النِّبـاج أرانـبٌ وإن جاء بعد الرَّيْث فهو قليلُ
إذا صـــد مَثْغُورٌ وأعرض مُعْرِضٌ فيومٌ على أهـل النبـاج طويـلُ

* * *

عدنا إلى ما كنا فيه من حديث الممالحة وكان قد استزادني فكتبت له هذه الورقات وقرأتها بين يديه، فقال كلامًا كثيرًا عند كل ما مر مما يكون صلة لذلك الحديث، خَزَلْتُه طلبًا للتخفيف:

قال حمَّاد الراوية: عن قتادة قال زيادٌ لغَيْلَان بن خَرَشة: أحبُّ أن تحدثني عن العرب وجَهْدِها وضنك عيشها لنحمد الله على النعمة التي أصبحنا بها. فقال غيلان: حدثني عمي قال: توالت على العرب سِنون سبعٌ في الجاهلية حَصَّت كلَّ شيء، فخرجتُ على بَكْرٍ لي في العرب، فمكثتُ سبعًا لا أذوق فيهن شيئًا إلا ما ينال بعيري من حشرات الأرض حتى دنوتُ إلى حِواء عظيم، فإذا ببيتٍ جَحِيشٍ عن الحي فمِلْت إليه، فخرجت إليَّ امرأةٌ طُوالة حسَّانة، فقالت: مَن؟ قلت: طارق ليلٍ يلتمس القِرى. فقالت: لو كان عندنا شيءٌ آثرْناك به، والدالُّ على الخير كفاعله: جُسْ هذه البيوتَ فانظر إلى أعظمها، فإن يك في شيء منها خيرٌ ففيه. ففعلتُ حتى دنوتُ إليه، فرحَّب بي صاحبه وقال: مَن؟ قلت: طارق ليلٍ يلتمس القِرَى. فقال: يا فلان. فأجابه، فقال: هل عندك (من) طعام؟ قال: لا. قال: فوالله ما وَقَر في أذني شيءٌ كان أشدَّ عليَّ منه. فقال: هل عندك من شراب؟ قال: لا. ثم تأوَّه وقال: قد أبقينا في ضَرْع فلانة شيئًا لطارقٍ إن طَرَق. قال: فأْتِ به. فأَتَى العَطَن فابتعثها، فحدثني عمي أنه شهد فتح أَصْفِهان وتُسْتَر ومِهْرَجان قُذَق وكُور الأهْواز وفارس، وجاهد عند السلطان وكثر ماله وولدُه؛ قال:

فما سمعتُ شيئًا قطُّ كان ألذَّ إليَّ من شَخْب تلك الناقة في تلك العُلْبة، حتى إذا ملأها ففاضت من جوانبها وارتفعت عليها رَغْوةٌ كجُمَّة الشيخ أقبل بها نحوي فعَثَر بعُودٍ أو حجر، فسقطت العلبة من يده، فحدثني أنه أُصيب بأبيه وأمه وولده وأهل بيته، فما أُصيب بمصيبة أعظم عليه من ذهاب العُلْبة. فلما رآني كذلك ربُّ البيت خرج شاهرًا سيفه، فبعث الإبل ثم نظر إلى أعظمها سَنامًا، على ظهرها مثل رأس الرجل الصَّعِل، فكشف عن فُوَّهتِه ثم أوقد نارًا، واجْتَبَّ سَنامَها، ودفع إليَّ مُدية وقال: يا عبد الله، اصْطَل واجْتَمِلْ. فجعلتُ أَهْوِي بالبَضْعَة إلى النار، فإذا بلغتْ إنَاها أكلتُها، ثم مسحتُ ما في يدي من إهالتها على جلدي، وكان قد قَحَل على عَظْمي حتى كأنه شَنٌّ، ثم شربت ماءً وخررتُ مَغْشِيًّا عليَّ فما أفقتُ إلى السَّحَر.

* * *

الليلة الرابعة والثلاثون

وقال الوزير في بعض الليالي: قد والله ضاق صدري بالغيظ لما يبلغني عن العامة من خوضها في حديثنا، وذكرِها أمورَنا، وتتبُّعها لأسرارنا، وتنقيرها عن مكنون أحوالنا، ومكتوم شأننا، وما أدري ما أصنع بها، وإني لأهُمُّ في الوقت بعد الوقت بقطع ألسنةٍ وأيدٍ وأرجلٍ وتنكيلٍ شديدٍ لعل ذلك يطرح الهيبة ويحسم المادة ويقطع هذه العادة، لحاهم الله! ما لهم لا يقبلون على شئونهم المهمة، ومعايشهم النافعة، وفرائضهم الواجبة؟ ولمَ ينقِّبون عما ليس لهم، ويُرْجِفون بما لا يجدي عليهم؟ ولو حققوا ما يقولون ما كان لهم فيه عائدةٌ ولا فائدة، وإني لأعجب من لَهَجهم وشَغَفهم بهذا الخُلُق حتى كأنه من الفرائض المحتومة، والوظائف الملزومة. وقد تكرر منا الزجر، وشاع الوعيد، وفشا الإنكار بين الصِّغار والكبار، ولقد تعايَى عليَّ هذا الأمر وأُغلق دوني بابُه، وتكاثف عليَّ حجابه، والله المستعان. فقلت: أيها الوزير، عندي في هذا جوابان: أحدهما ما سمعتُ من شيخنا أبي سليمان، وهو من تفوَّق في الفضل والحكمة والتجربة ومحبة هذه الدولة والشفقة عليها من كل هبَّة ودبَّة، والآخر مما سمعتُه من شيخ صوفيٍ، وفي الجوابين فائدتان عظيمتان. ولكن الجملة خَشناء، وفيها بعض الغلظة، والحق مر، ومن توخى الحق احتمل مرارته.

قال: فاذكر الجوابين وإن كانا غليظين، فليس يُنتفع بالدواء إلا بالصبر على بشاعته، وصُدود الطبع عن كراهته.

قلت: أما أبو سليمان فإنه قال في هذه الأيام: ليس ينبغي لمن كان الله عز وجل جعله سائسَ الناس، عامتِهم وخاصتهم، وعالِمِهم وجاهلِهم، وضعيفِهم وقويِّهم، وراجحِهم وشائلِهم؛ أن يَضْجَر مما يَبلُغه عنهم أو عن واحد منهم لأسباب كثيرة، منها: أن عقلَه فوق عقولهم، وحلمَه أفضل من حُلُومهم، وصبرَه أتم من صبرهم. ومنها أنهم إنما جُعلوا تحت قدرته، ونيطوا بتدبيره، واختُبروا بتصريفهم على أمره ونهيه، ليقوم بحق الله تعالى فيهم، ويصبر على جهل جاهلهم، ويكونَ عماد حاله معهم الرفق بهم، والقيامَ بمصالحهم. ومنها أن العلاقة التي بين السلطان وبين الرعية قوية لأنها إلهيةٌ، وهي أوشج من الرحم التي تكون بين الوالد والولد، والملِك والدٌ كبير كما أن الوالد ملكٌ صغير، وما يجب على الوالد في سياسة ولده من الرفق به، والحنوِّ عليه، والرقة له، واجتلاب المنفعة إليه؛ أكثر مما يجب على الولد في طاعة والده، وذلك أن الولد غِرٌّ، وقريب العهد بالكون، وجاهلٌ بالحال، وعارٍ من التجربة، كذلك الرعية الشبيهة بالولد وكذلك الملك الشبيه بالوالد. ومما يزيد هذا المعنى كشفًا، ويُكسبه لطفًا، أن الملك لا يكون ملكًا إلا بالرعية، كما أن الرعية لا تكون رعيةً إلا بالملك، وهذا من الأحوال المتضايفة، والأسماء المتناصفة. وبسبب هذه العلاقة المُحْكمة، والوُصْلَة الوشيجة، ما لهِجَت العامة بتعرف حال سائسها، والناظرِ في أمرها، والمالِك لزمامها، حتى تكون على بيانٍ من رفاهة عيشِها، وطِيب حياتها، ودُرُورِ مواردها، بالأمن الفاشي بينها، والعدلِ الفائض عليها، والخيرِ المجلوب إليها، وهذا أمرٌ جارٍ على نظام الطبيعة، ومندوبٌ إليه أيضًا في أحكام الشريعة.

قال: ولو قالت الرعية لسلطانها: لمَ لا نخوض في حديثك، ولا نبحث

عن غيب أمرك؟ ولِمَ لا نسأل عن دينك ونِحْلتك وعادتك وسيرتك؟ ولِمَ لا نقف على حقيقة حالك في ليلك ونهارك، ومصالحُنا متعلقةٌ بك، وخيراتُنا متوقَّعةٌ من جهتك، ومسرَّتُنا ملحوظةٌ بتدبيرك، ومَساءتُنا مصروفة باهتمامك، وتَظلُّمُنا مرفوعٌ بعزك، ورفاهِيَتُنا حاصلةٌ بحسن نظرك، وجميلِ اعتقادك، وشائع رحمتك، وبليغ اجتهادك؟ ما كان جواب سلطانها وسائسها؟ أما كان عليه أن يعلم أن الرعية مُصيبةٌ في دعواها التي بها استطالت؟ بلى والله، الحقُّ معترَفٌ به وإن شَغَب الشاغب، وأعْنَت المُعْنت.

قال: ولو قالت الرعية أيضًا: ولِمَ لا تبحثُ عن أمرك؟ ولِمَ لا تسمع كلَّ غثٍّ وسمين منا، وقد ملكت نواصينا، وسكنتَ ديارنا، وصادرْتَنا على أموالنا، وحُلْت بيننا وبين ضِياعنا، وقاسمْتنا مواريثنا، وأنسيْتَنا رَفَاغَة العيش، وطِيبَ الحياة، وطُمأنينة القلب، فطُرُقنا مَخُوفة، ومساكننا مَنْزُولة، وضِياعُنا مُقْطَعة، ونِعَمنا مسلوبة، وحَرِيمُنا مُستباح، ونَقدنا زائف، وخَراجُنا مُضاعف، ومعاملتُنا سيئة، وجُنديُّنا متغطرس، وشُرطيُّنا منحرف، ومساجدُنا خَرِبة، ورُفوفُها مُنتهَبة، ومارِسْتاناتُنا خاوية، وأعداؤنا مُسْتكْلِبة، وعيوننا سخينة، وصدورُنا مَغِيظة، وبليَّتنا متصلة، وفرحُنا معدوم؟ ما كان الجواب أيضًا عما قالت وعما لم تقل، هيبةً لك، وخوفًا على أنفسها من سطوتك وصَوْلتك؟

* * *

الليلة الخامسة والثلاثون

وقال ليلةً: ما الفرق بين الإرادة والاختيار؟ فكان من الجواب أن كلَّ مرادٍ مختار، وليس كلُّ مختارٍ مرادًا، لأن الإنسان يختار شرب الدواء الكريه وضرب الولد النجيب وهو لا يريد، ويختار طرح متاعه في البحر إذا أُلْجِئ وهو لا يريد، وهما وإن كانا انفعالَيْن فأحدهما وهو الاختيار لا يحدث إلا عن جَوَلَان وتنقيرٍ وتمييز، والآخر وهو الإرادة يَفجأ ويَبْغَت وربما حمل على طلب المراد بالكره الشديد. وفي عرض الاختيار سَعَةٌ للتمكُّن، وليس ذلك في عرض الإرادة. والعرب تستعمل الإرَاغَة في موضع الإرادة، والأول من راغ يَرُوغ والثاني من رَاد يَرُود، والهمزة مُجْتَلَبةٌ للتعدي.

قال: فما الفرق بين المحبة والشهوة؟ فكان الجواب أن الشهوة ألصق بالطبيعة، والمحبة أَصدَر عن النفس الفاضلة، وهما انفعالان إلا أن أحد الانفعالين أشدُّ تأثرًا وهو انفعال الشهوة، وأنه يقال: شَهِيَ وأَشْهَى، ويقال في الآخر: حَبَّ وأحبَّ، ويتداخلان كثيرًا بالاستعمال، لأن اللغة جاريةٌ على التوسع كما هي جاريةٌ على التضيُّق، ومن ناحية التضيق فُزِع إلى التحديد والتشديد، ومن ناحية التوسُّع جُرِي على الاقتدار والاختيار. وفي عرض هذين بلاءٌ آخر، لأنه بين الإيجاز والإطناب، وبين الكناية والتصريح، وبين الإنجاز والإبطاء. فقال: هذا باب.

ثم ناولني رقعةً بخطه فيها مطالب نفيسةٌ تأتي على علمٍ عظيم، وقال: باحِثْ عنها أبا سليمان وأبا الخير ومن تعلم أن في مُجاراته فائدةً؛ من عالمٍ

كبير، ومتعلمٍ صغير، فقد يوجد عند الفقير بعض ما لا يوجد عند الغني، ولا تَحْقِرْ أحدًا فاه بكلمةٍ من العلم، أو أطاف بجانبٍ من الحكمة، أو حكم بحالٍ من الفضل، فالنفوس معادن. وحصِّل ذلك كلَّه وحرِّرْه في شيء وجئني به.
وكان في الرقعة:

ما النفْس؟ وما كمالُها؟ وما الذي استفادت في هذا المكان؟ وبأي شيء باينت الروح؟ وما الروح؟ وما صفته؟ وما منفعته؟ وما المانع من أن تكون النفس جسمًا أو عَرَضًا أو هُما؟ وهل تبقى؟ وإن كانت تبقى فهل تعلم ما كان الإنسان فيه ها هنا؟ وما الإنسان؟ وما حدُّه؟ وهل الحد هو الحقيقة أم بينهما بَوْن؟ وما الطبيعة؟ وهلَّا أغنى الروح عن النفْس، أو هلَّا أَغْنَت النفْس عن الروح! وهلَّا كَفَت الطبيعة! وما العقل؟ وما أنحاؤه؟ وما صنيعه؟ وهل يُعْقَل العقل؟ وهل تتنفس النفْس؟ وما مرتبتُه أعني العقل عند الإله؟ وهل ينفعل؟ وهل يفعل؟ وإن كان ينفعل ويفعل فقِسْط الفعل فيه أكثر من قسط الانفعال؟ وما المعاد المشار إليه، أهو للإنسان أم لنفسه أم لهما؟ وما الفرق بين الأنفس، أعني نفس عمرو وزيدٍ وبكرٍ وخالد؟ ثم ما الفرق بين أنفس أصناف الحيوان؟ وهل المَلَك حيوان، فقد علمتَ أنه يقال له حيٌّ؟ وهل فيه حياة؟ وعلى أي وجهٍ يقال إن الله عز وجل حيٌّ، والمَلَك حي، والإنسان حي، والفرس حي؟ وهل يقال الطبيعة حية، والنفس حية، والعقل حي؟

فإن هذا وما أشبهه شاغلٌ لقلبي، وجاثمٌ في صدري، ومعترضٌ بين نفسي وفكري، وما أحب أن أبوح به لكل أحدٍ، وقد بيَّنْتُه في هذه الرقعة، فإن أحببتَ أن تعرضها على أبي سليمان فافعل، ولكن لا تدع خطي عنده، بل انسخه له، وحصِّل ما يجيبك به، ويصدع لك بحقيقته، ولخِّصْه، وزِنْه بلفظك

السهل، وإفصاحك البيِّن، وإن وجب أن تباحث غيره فافعل، فهذا هذا. وإن كان الرجوع فيه إلى الكتب الموضوعة من أجله كافيًا، فليس ذلك مثلَ البحث عنه باللسان، وأخذِ الجواب عنه بالبيان، والكتابُ مَوات، ونصيب الناظر فيه مَنْزُور، وليس كذلك المذاكرة والمناظرة والمواتاة، فإن ما يُنال من هذه أَغَضُّ وأطْرأ، وأهْنأ وأمْرأ. واجعل هذه الخدمة مقدَّمةً على كل مهمٍّ لك، فإني ناظرك، طامعًا في الجواب المقنع الشافي.

فعرضتُها كما رسم على أبي سليمان وقرأتُها عليه، وتمهَّلْتُ في إيرادها بحضرته، فلما فهمها ووقف عليها عجب وقال: هذه مسائل المتحكِّمين وطلبات المُدِلِّين، واقتراحات المقتدرين، ومُنْيَة الأولين والآخرين.

قلت: هو كما قلتَ أيها الشيخ، ولا بدَّ من جوابٍ يُعْرض عليه يأتي على بعض مآرب النفس، وإن لم يأتِ على قاصية ما في المطلوب، فقال كلامًا كثيرًا واسعًا أنا أحكيه على وجهه من طريق المعنى، وإن انحرفتُ عن أعيان لفظه، وأسباب نظمه، فإن ذلك لم يكن إملاءً ولا نسخًا، وأجتهدُ أن ألزم متن المراد، وسَمْتَ المقصود إن شاء الله عز وجل.

* * *

الليلة السادسة والثلاثون

وقال دامت أيامه: كيف تقول عند مُهَلِّ الشهر شيئًا آخر من لفظه؟ فكان من الجواب: حَكَى العالِم: عند هُلول الشهر ومُسْتَهَلِّه وهِلِّه وإهلاله واستهلاله.

قال: ورأيتُ الحاتميَّ يقول: عشر كلماتٍ جاءت وعينُها عينٌ ولامُها واوٌ، ولم أُوثِر شرحَه لها لثِقَل روحه، ومغالاته بنفسه، وكأنه لا علم إلا عنده، ولا فائدة إلا هي معه؛ فهل في حفظك هذه الكلمات؟

قلتُ: لا إله إلا الله، اليوم ذكر الأندلسي هذه الكلمات وعدَّها، وقد حفظتُها. فقال: هات يا مبارك. فكان الجواب: منها البَعْو وهو الجناية، والجَعْو وهو الطين، والدَّعْو مصدر دعا دَعْوًا، والسَّعْو: الشمع، والشَّعَوُ: هو انتفاش الشعر، والصَّعْو: الرجل الضعيف، وهو أيضًا طائرٌ أصغر من العصفور، والقَعْو: من البَكْرة، واللَّعْو: الحريص، والذئبُ في بعض اللغات، والمَعْو: الجَنِيُّ من الرُّطَب، والنَّعْوُ: الشَّقُّ في مِشْفر البعير.

قال: هذا حسن، لو أتى به الحاتمي لَلَوَى شِدْقَه، وقال: تنحَّ فقد جاء الأسد، وغلَب الطوفان، وخرج الدَّجَّال، وطلعت الشمس من المغرب. ما بال أصحابنا تعتريهم هذه الخيلاء، ويغلب عليهم النقص، ويستمكن منهم الشيطان؟!

قلتُ: قال أبو سليمان: كلُّ من غلب عليه حفظُ اللفظ وتصريفُه وأمثلتُه وأشكالُه؛ بَعُد من معاني اللفظ. والمعاني صَوْغ العقل، واللفظ صَوْغ

اللسان، ومن بَعُد من المعاني قلَّ نصيبه من العقل، ومن قلَّ نصيبه من العقل كثُر نصيبه من الحُمْق، ومن كثر نصيبُه من الحمق خَفِيَ عليه قُبْح الذِّكْر.

* * *

الليلة السابعة والثلاثون

وقال الوزير ليلةً: ما أحوجَ الجبانَ إلى أن يسمع أحاديث الشجعان! وما أشدَّ انتفاعَ الضَّيِّق النفْس باستماع أخبار الكرام! لأن الأخلاق في الخَلْق أعراض، والأعراضُ منها لازمٌ ومنها لاصق.

قال: وكان عيسى بن زُرْعة سرَد على سنة سبعين لياليَ كانت الأشغال خفيفة، والسياسة بالماضي، نوَّر الله قبرَه وضريحَه! عامة، والنظرُ بالحسنى شاملًا؛ أشياءَ في الخُلُق أتى بها على عمود ما كان في نفسي، وذلك أنه ذكَر العقل والحمق، والعلم والجهل، والحلم والسُّخْف، والقناعة والشَّرَه، والحياء والقِحَة، والرحمة والقسوة، والأمانة والخيانة، والتيقظ والغفلة، والتُّقَى والفجور، والجرأة والجبن، والتواضع والكبر، والوفاء والغدر، والنصيحة والغش، والصدق والكذب، والسخاء والبخل، والأناة والبطش، والعدل والجوْر، والنشاط والكسل، والنُّسك والفتك، والحقد والصفح. وينبغي أن تزور عيسى وتذكر له هذه الجملة، وتبعثَه على إعادة حدودها، وإشباع القول فيها، مع إيجازٍ لا يكون به مدخلٌ للخلل، ولا تقصيرٌ عن إيصال الآخِر بالأول.

فلقيتُ عيسى وعرَّفتُه الحديث، وأملى ما رسمتُه في هذا الجزء، وعرضتُه على أبي سليمان فرضِيَه بعض الرضا، ولم يسخط كلَّ السُّخْط، وقال: تحديد الأخلاق لا يصحُّ إلا بضربٍ من التجوُّز والتسمُّح، وذلك أنها مُتلابسة تلابسًا، ومتداخلةٌ تداخلًا، والشيء لا يتميز عن غيره إلا ببَيْنونةٍ واقعةٍ تظهر للحس اللطيف، أو تتضح للعقل الشريف.

ثم قال: ألا ترى أن الفكر مشوبٌ بالروية، والظنَّ مخلوطٌ بالوهم، والذِّكْرَ معنيٌّ بالتخيل، والبديهة جانحةٌ إلى الحس، والاستنباط موصوفٌ بالغوص؟ وما هذا المعنى الذي ميَّز التواضع من شوْب الضَّعَة، أو خلَّص علوَّ الهمة من شَوْب الكِبْر، أو فَرَز عزة النفس من نقص العُجْب، أو أبان الحِلْم عن بعض الضعف؟! هذا بالقول ربما سَهُل وانقاد، ولكن بالعقل ربما عزَّ واعتاص، والأخلاق والخِلَق مختلطة، فمنها ما اختلاطُه قويٌّ شديد، ومنها ما اختلاطُه ضعيفٌ سهلٌ، ومنها ما اختلاطُه نَصَفٌ بين اللين والشدة، وهذه ينفع العلاجُ في بعضها، ويَنْبو العلاج عن بعضها، والحزمُ يقضي بألا يُتهاون بما يقبل العلاج لأجل ما لا يقبَل العلاج.

قال: وهذا أيضًا يختلف بحسَب المِزاج والمِزاج، والإنسانِ والإنسان، ألا ترى أنك لو رُمْت تحويل البخيل من العرب إلى الجود كان أسهلَ عليك من تحويل البخيل من الرُّوم إلى الجود، والطمع في جبان الترك أن يتحوَّل شجاعًا أقوى من الطمع في جبان الكُرْد أن يصير بطلًا.

قال: ومع هذا فوصفُ الأخلاق بالحدود نافعٌ جدًّا، وإضمارُها في النفْس مثمرٌ أبدًا، فهذا هذا.

وأما ما قال أبو علي فإنه هذا:

قيل: ما الحلم؟ قال: ضبط الفكر بكفِّ الغضب.

وقال شيخنا أبو سعيد السيرافي: اعتباره من ناحية الاسم تعطيلٌ لطبعه، وذلك أن الحِلم شريك التحلُّم، «فكان الحليم الذي يُعَدُّ فيمن يحلُم» في عُرْض الحليم الذي لا يُعاجُ عليه ولا يُكْترث له. قال: والتحلم نافعٌ أيضًا،

وهو أحمدُ من التحالُم، لأن الثاني أقرب إلى التأني، كما أن الأول أقربُ إلى الحقيقة.

وقيل لعيسى: ما العدل؟ فقال: القِسْط القائم على التساوي.

وحكى جالينوس قال: إن الناس لشدة حبهم لأنفسهم يظنون أن لهم ما يُحِبون، فمن أجل ذلك وقعوا في العُجب. فينبغي أن تكون محبتُك لنفسك حقيقية، ويتم ذلك لك إذا أنت صيَّرت نفسَك على الحال التي يَرَى من يرى أنك عليها.

وقال: المُعْجَب يحب نفسه أكثر مما يَحقُّ لها، وما أحسنَ بالإنسان أن يحب نفسه! ولكن بالعدل، فإن أراد أن يحبها جدًّا فيجب أن يجعلها من أهل المحبة، ثم يحبها من بعد.

قيل: فما الحسد؟ قال: شدة الأسى على شيء يكون لغيره.

قيل: فما الكآبة؟ قال: إفراط الحُزْن.

قال أبو سليمان: الحزن والغم والهم والأسى والجَزَع والخَوَر من شجرة واحدة، ومن تَعَاطَى وصفَ أغصان شجرة طال عليه ولم يَحْظَ بطائل، ويكفي أن نعرف شجرة التفاح من شجرة المُشْمُش، وشجرة الكُمَّثْرى من شجرة السَّفَرْجل، فإن عواقب المعارف نكرات، كما أن فواتح المعارف جهالات.

قيل: فما الشجاعة؟ قال: الإقدام في موضع الفرصة من جميع الأمور.

قال أبو سليمان: الشجاعة إذا كانت نُطْقية كانت فرصتُها تعاطِيَ الحكمة، والدُّءُوبَ في بلوغ الغاية، وبذلَ القوة في نيل البِغْية. وإذا كانت

غَضَبيةً كانت فرصتُها شفاء الغيظ إما من مستحِق، وإما من غير مستحِق. وإذا كانت شَهَويةً كانت فرصتها التحليَ بالعفة التامة، أعني في الخَلْوة والحَفْل.

قال لنا أبو الحسن عليٌّ بن عيسى الرُّمَّاني الشيخُ الصالح: العِفَّة واسطة بين المقارفة والعصمة، والعصمة واسطةٌ بين البشرية والمَلَكية.

وحكى عيسى بن زُرْعة في هذا الموضع أن مُورِيس قال: إني لأعجب من ناسٍ يقولون: كان ينبغي أن يكون الناس على رأي واحد، ومنهاج واحد! وهذا ما لا يستقيم ولا يقع به نظام.

قال: وهَبْ أن يكون الناس وكلُّ واحدٍ منهم مَلِكًا يأمر وينهى، ويُسْتمَع له ويُطَاع؛ فمن كان المأمورَ المؤتمر، والمَنْهيَّ المنتهِي؟ والعاقلُ الحصيفُ يعلم أنه لا بدَّ من التفاوت الذي به يكون التصالح، كالعالِم والمتعلم، والآمر والمأمور، والصانعِ والمصنوع له.

ثم قال عيسى: من توابع الأخلاق المذمومة الغضب والكذب والجهل والجوْر والدناءة.

قال أبو سليمان: أما الغضب فلا يكون مذمومًا إلا إذا أُعْمل في غير أوانه، وعلى غير ما يأذن الناموس الحقُّ به. وأما الكذب ففيه أيضًا مصالح، كما أن الصدق ربما أفضى إلى كثير من المفاسد وإن كان الصدق قد فاز بالوصف الأحسن، والكذب قد وُصِف بالنعت الأقبح فكم كذبٍ نجَّى من شر! وكم صدقٍ أوْقعَ في هُوَّة! وبقي الآن أن نعرف الصدق مع أوانه ومكانه، فيُؤْتَى به أو يُنْهَى عنه، وكذلك الكذب على حَذْوه ومثاله.

قال: وأما الجهل والجَوْر والدناءة فإنها أثافِيُّ الرذائل، فينبغي أن يُنْتَفَى منها جملةً وتفصيلًا، ولا يسلك أحدٌ إلى شيء منها سبيلًا فإنها أَعْدَام والعَدَم كريهٌ ومهروبٌ منه، والوجود على أنقص النعوت أتمُّ وأشرف من العدم على أَزْيد الصفات، وإن كان لا زيادة في العدم إلا من طريق الوهم العارض ما يصحُّ وما لا يصح.

قيل: فما العُجْب؟ قال: وزن النفس بأكثر من مثقالها.

وقال أيضًا: العُجب هو النظر في النفس بعين ترى القبيح جميلًا.

ويقال: المُعْجَب يدَّعي أن ما ينبغي أن يُعْجب منه قد حصل له من غير أن يكون كذلك، فأما إذا كان ذلك حاصلًا فالعُجْب ليس بعُجْبٍ إلا من طريق الاسم، وإلا فهو في الحقيقة إحساسٌ بالفضل المعشوق، وشعورٌ بالكمال المَوْمُوق، واستدعاءٌ للزيادة مما صار به هكذا، واستعدادٌ لقبول الفيض من معدِنه بالاختيار الثاني والاعتياد الأول.

قيل: فما الوفاء؟ قال: قضاء حقٍّ واجب، وإيجابُ حقٍّ غير واجب، مع رِقَّةٍ أُنْسِية، وحفيظةٍ مَرْعية.

قيل: فما الرغبة؟ قال: حركةٌ تكون من شهوةٍ يُرْجَى بها منفعة.

قال أبو سليمان: الرغبة إذا كانت نطقية كانت مَبْعَثةً على التحلِّي بالفضائل، وإذا كانت سَبُعيةً أو بَهيمِيةً كانت مُلْهِجةً بمواقعة أضدادها٧ من الرذائل.

وقيل: ما المهنة؟ فقال: حركةٌ يَتَعاطاها الإنسان بلا حَفْزٍ ولا استكراه.

قال علي بن عيسى: المهنة صناعة، ولكنها [إلى الذل أقرب، وفي الضَّعَة أدخل. والصناعة مهنة، ولكنها] ترتفع عن توابع المهنة، وفي الصناعات ما يتصل به الذل أيضًا، ولكنْ ذلٌّ ليس من جهة حقيقة الصناعة، ولكن من جهة العرْض الذي بين الصناعة والصناعة، والمرتبة والمرتبة.

قيل: فما العادة؟ قال: حالٌ يأخذ بها المرء نفسَه من غير أن تكون مسنونةً يجري عليها مَجرَى ما هو مألوفٌ طبيعي.

قال أبو سليمان: كأن هذا الاسم ليس يخلُص إلا لمن أتى شيئًا مرارًا، فأما في أول ذلك فليس له هذا النعت، وإنما يصير مألوفًا بالتكرار، ولهذا ما صِيغت الكلمة من عاد يعود واعتاد يعتاد.

وأما قوله: طبيعي. فعلى وجه التشبيه، لأن الطبيعي أشد رسوخًا وأثبت عِرْقًا، وأبعدُ من الانتقاض. فأما العادةُ فكلُّ ذلك جائزٌ عليها، وغيرُ مأمون من الوقوع فيه.

قيل: كم الحركات؟ قال: ستة أصناف؛ أولها حركة الانتقال، وهي ضربان: إما حركة الجسم بكلِّه من مكان إلى مكان، وإما حركتُه بأجزائه كالفَلَك والرَّحَى. والثاني حركة الكون، والثالث حركة الفساد، والرابع حركة الرُّبُوِّ، والخامس حركة النقْص والبِلَى، والسادس حركة الاستحالة، وهي ضربان: أمَّا في الجسم فمِثل اللون، وأما في النفس فمثل الغضب والرضا والعلم والجهل.

والنُّقْلة مكانية، والكون والفساد جوهريَّان، والاستحالة هيئية، والنمو والاضمحلال مكانيان.

قال الكندي: وها هنا حركةٌ أخرى، وهي حركة الإبداع، إلا أن بينها وبين حركة الكون فرقًا، لأن هذه لا من موضوع، وحركة الكون من فساد جوهرٍ قبْله بحدوثه، ولذلك قيل: إن الكون خروجٌ من حالٍ خسيسةٍ إلى حال نفيسة.

قال أبو سليمان: حركة الإبداع عبارةٌ بسيطة لا يجب أن يُفهَم منها معنًى مركَّب. قال: وإنما قلت هذا لأن اللفظ نظير اللفظ في أغلب الأمر وليس المعنى نظير المعنى في أغلب الأمر، واللفظ كلُّه من وادٍ واحد في التركُّب بلغة كل أمة، والمعاني تختلف في البساطة على قدر العقل والعقل، والعاقل والعاقل. وإنما حركة الإبداع مشارٌ بها إلى مقوِّم الأشياء بلا كُلْفة فاعل، ولا مُعاناة صانع، وإنها بَدَتْ بالمُبْدِع من المُبْدع للمبدع لا على أن الباء أَلْصَقت به شيئًا، ولا على أن مِن فصلت منه شيئًا، ولا على أن اللام أضافت إليه شيئًا. فإن هذه العلامات والأمارات كلَّها موجودةٌ في الأشياء التي تعلَّقت بالإبداع، فلم يَجُزْ أن يُنْعتَ بها المبدع، ولو جاز هذا لكان داخلًا فيها وموجودًا بها، وهذا بعيدٌ جدًّا. فلما جلَّ عن هذه الصفات بالتحقيق في الاختيار وُصِف بها بالاستعارة على الاضطرار، لأنه لا بدَّ لنا من أن نذكره ونصفه وندعوَه ونعبدَه ونقصده ونرجوَه ونخافَه ونعرفَه وننحُوَه ونطلبَ ما عنده ونواجهَه ونكافِحَه. وهذه نعمةٌ منه علينا، ولُطْفٌ منه بنا، وحكمةٌ بينه وبيننا، وإلا كانت العصمة تَنْبَتِر، والطمعُ ينقطع، والأمل يضعُف، والرجاء يخيب، والأركان تتخلخل، والذرائع ترتفع، والوسائل تمتنع، والقواعدُ تسيح، والرغباتُ تسقط، والجودُ والكرم والحكمة والقدرة والجبروت والملكوتُ تأبى ذلك. فصارت هذه الأسماءُ والصفاتُ سلالم لنا إليه، لا حقائقَ يجوز أن يُظَنَّ

به شيءٌ منها، على سبيل السياج الممدود، والمنهاج المحدود.

سُقْتُ كلامَ عيسى في تصنيف الحركات من أجل هذه الفقرة التي كانت محفوظةً في حركة الإبداع، فإني قد وجدت للقوم في هذا الباب حيرةً عارضة أو راكدةً، لا يستطيعون التَّفَصِّي عنها، ولا يقدرون على البراءة منها، للضلال الذي قد لزمهم، والأصنام التي قد تربعت في نفوسهم، والأمثلةِ التي قد خالَطت عقولَهم، والأَفْياء التي استصحبوها من إحساسهم. والقائل هذا ينبغي أن يتحرَّى ويتلبث حتى يَعْرَى من هذه الأشياء ويتريَّث، فحينئذٍ أضمن له أن يصح توحيده، ويتمَّ تجريده، وإلى التوحيد تنتهي الفلسفة بأجزائها الكثيرة، وأبوابها المختلفة، وطرُقها المتشعبة.

وأنا أعوذ بالله من صناعةٍ لا تحقِّق التوحيد، ولا تدل على الواحد، ولا تدعو إلى عبادته، والاعتراف بوحدانيته، والقيامِ بحقوقه، والمصير إلى كنَفه، والصبر على قضائه، والتسليم لأمره! ووجدتُ أرباب هذه الصناعات، أعني الهندسة والطب والحساب والموسيقى والمنطق والتنجيم، مُعْرِضين عن تجشُّم هذه الغايات، بل وجدتهم تاركين الإلمامَ بهذه الحانات. وهذه آفةٌ نسأل الله السلامة منها، والعافية من عواقبها! والسلام.

قيل: ما التمام؟ قال: بلوغ الشيء الحدَّ الذي ما فوقه إفراط، وما دونه تقصير.

قال أبو سليمان: التمام أَلْيَق بالمحسوسات، والكمال أليق بالأشياء المعقولة.

قال: وليست هذه الفُتْيَا مني جازمة، ولا عن العرب العاربة مرويَّة.

ولكن إذا لَحَظنا المعانيَ مختلفة، طلبنا لها أسماءً مختلفة، ليكون ذلك معونةً لنا في تحديد الأشياء أو في وصف الأشياء من طريق الإقناع الكافِّ للجدل والتهمة، أو من طريق البرهان القاطع بالحجة، الرافع للشبهة، أو من طريق التقليد الجاري على السَّنَن والعادة.

قال: ولهذا إذا قيل: ما أتمَّ قامتَه! كان أحسن، وإذا قيل: ما أكمل نفسَه! كان أجمل.

قيل له: هل يتساوى الكون والفساد فيبقى الشيء على ما هو به؟ فقال: أما على الحقيقة فلا، ولكن على السعة، لأن الكون متصل بالفساد، إلا أنهما يخفيان في مبادئهما حتى إذا امتد الآنان فصارَ آنًا واحدًا فحينئذٍ بان الكون من الفساد، وبان الفسادُ من الكون، وهذا بالاعتبار الحسي، فأما العقل فيرتفع عن هذا، لأنه يعلم حقيقة الشيء على ما هو عليه، ولا يقبل من الحس حُكمًا، ولا يَحتكم إليه أبدًا.

وإنما الحسُّ عاملٌ من عمال العقل، والعامل يجور مرةً ويعدل مرة، فأما الذي هذا هو عامله فهو الذي يتعقبه، فإن وجده جائرًا أبطل قضاءه، وإن وجده عادلًا أمضى حكمَه، ومتى استُشير الحسُّ في قضايا العقل فقد وُضع الشيء في غير موضعه، ومتى استُشير العقلُ في أحكام الحس فقد وُضع الشيء في موضعه.

* * *

الليلة الثامنة والثلاثون

وجرَى ليلةً بحضرة الوزير أعلى الله كلمتَه، وأدام غِبْطته، ووالَى نِعْمتَه! أحقُّ من دُعِي له، وأشرف من بُوهِي به، وأكملُ من شوهد في عصره حديثُ ابن يوسف وما هو عليه من غَثَاثته ورَثَاثته وعِيَارَته وخساسته.

فقلت له: عندي حديثٌ ولا شك أن الوزير مطَّلعٌ عليه عارفٌ به. قال: ما ذاك؟ قلت: حدثني أبو علي الحسن بن علي القاضي التَّنُوخِيُّ قال: كنت في الصحبة إلى هَمَذان سنة تسعٍ وستين، وكنا جماعةً وفينا ابن حرنبار أبو محمد، وكان في جنبه ابن يوسف، فاتفق أن عضد الدولة – برَّد الله مضجعه – قال لابن شاهَوَيْه: سِرْ إلى ابن حرنبار وقل له: ينبغي أن تسير إلى البصرة وإنا نجعل لك فيها معونة، فقد طال مُقامك عندنا، وتوَالَى تبرُّمُنا بك وتبرُّمُك بنا، وليس لك بحضرتنا ما تُحِبه وتقترحه، والسلامة لك في بعدك عنا قبل أن يُفضي ذلك إلى تغيُّرنا. وكلامًا في هذا النوع.

قال: ونفَذَ أبو بكر ومعه آخَر من المجلس يشهد التبليغ والأداء، ويسمع الجواب والابتداء على رسمٍ كان معهودًا في مثل هذا الباب فلقِي ابن حرنبار وشافهه بالرسالة على التمام. فقال أبو محمد لما سمع: الأمر للملِك، ولا خلاف عليه. ولَعمري إن الناس بجُدُودهم ينالون حظوظَهم، وبحظوظهم يستديمون جدودَهم. ولو وُفِّقتُ ما كان عجيبًا، فقد نال من هو أنقص مني، وبلغ المنى من أنا أشرف منه، ولكن المقادير غالبة، وليس للإنسان عنها مُرْتَحل. وقد قيل: من سَاور الدهرَ غُلب. ولكن أيها الشيخ لي حاجة: أحب

أن تبلغ الملك كلمةً عني. قال: هاتها. قال: تقول له: أنا صائرٌ إلى ما رسمتَ، وممتثِلٌ ما أمرت، بعد أن تقضي لي وطَرًا في نفسي قد تَقطَّع عليه نَفَسي، وذاك أن تتقدَّم فيُقام عبدُ العزيز بن يوسف بين اثنين فيصْفعانه مائتين، ويقولان له: إذا لم تبذل جاهك لمتلهِّف، ولا عندك فرجٌ لمكروب، ولا بِرٌّ لضعيف، ولا عطاءٌ لسائل، ولا جائزةٌ لشاعر، ولا مرعًى لمنتجِع، ولا مأوًى لضيف؛ فلِمَ تُخاطَب بسيدنا، وتُقبَّل لك اليد، ويُقام لك إذا طلعتَ؟

قال ابن شاهويه: فَقَبْلَ أنْ لقيتُ الملِك أَفْصح له الذي كان معي مُشْرِفًا عليَّ. فلما دخلت الدار عُرِّف، فقال: عليَّ به. فحضرتُه وابن يوسف قاعدٌ بين يديه على رسمه. فقال لي: هات الجواب عما نفذْتَ فيه. فقلتُ: الجوابُ عندك. فقال: ما أعجب هذا! أنت حُمِّلتَ الرسالة وأطالب غيرَك بالجواب؟ قال: فتلوَّيتُ حياءً من ابن يوسف. فقال: هات يا هذا الحديثَ بفصِّه، فوالله لا أقنع إلا به، ما هذا التواني والتكاسل؟! فكرهتُ اللَّجاج، فسردتُه على وجهه، ولم أغادر منه حرفًا، وابن يوسف يتقدَّد في إهابه، ويتغير وجهُه عند كل لفظةٍ تمر به. فأقبل عليه الملك وقال: كيف ترى يا أبا القاسم الكيِّسَ؟ فقال: يا مولانا، إنما أنا أقضي الحاجة بك، فإذا لم تقضها كيف أكون؟ فإن الحوائج كلها إليك.

قال: صدقتَ، أنا لا أقضي حاجةً لك، لأنك لا تقصد بها وجه الله، ولا تبغي بها مكرمة، ولا تحفظ بها مروءة، وإنما ترتشي عليها وتصانع بها، وتجعلني بابًا من أبواب تجارتك وأرباحك. ولو كنتُ أعلم أنك تقْضي حاجةً لله أو لمكرمةٍ أو لرحمة ورِقَّةٍ، لكان ذلك سهلًا عليَّ وخفيفًا عندي، لكنك معروف المذهب في الطمع والحيلة، وجرِّ النار إلى قُرْصِك، وشَرَهك في جميع

أحوالك. وليس الذنب لك، ولكن لمن رآك إنسانًا وأنت كلبٌ.

وصدق الله قولَه فإنه كان أخسَّ خَلق الله، وأنتن الناس، وأقذر الناس، لا منظر ولا مخبر.

وكانت أمه مغنيةً من أهل البيضاء، وأبوه من أسقاط الناس، ونشأ مع أشكاله، وكان في مكتب الرَّبَضِيّ على أحوالٍ فاحشة، ووَرَّق زمانًا، ثم إن الزمان نوَّه به، ونبَّه عليه، ومثلُ هذا يكون والأيام ظهورٌ وبطون، وكما يسقط الفاضل إذا عانده الجَدُّ، كذلك يرتفع الساقط إذا ساعده الجَدُّ، فهذا هذا.

فقال: ما كان هذا الحديث عندي، وإنه لمن الغريب.

ثم قال: كيف خبرك في الفتنة التي عرضت وانتشرت، وتفاقمت وتعاظمت؟ فكان من الجواب: خبر من شَهِد أولَها، وغرِق في وسطها، ونجا في آخرها.

قال: حدِّثني فإن في روايته وسماعه تبصرةً وتعجبًا، وزيادةً في التجربة.

* * *

الليلة التاسعة والثلاثون

وقال الوزير ليلة: يعجبني الجواب الحاضر واللفظ النادر، والإشارة الحلوة والحركة الرضية والنغمة المتوسطة، لا نازلةً إلى قعر الحلق ولا طافحةً على الشفة.

فكان من الجواب: اقتراح الشيء على الكمال سهل، ولكن وجدانه على ذلك صعب، لأن التمني صفوُ النفس الحسية، ونيل المتمنَّى في الفرصة المحشوَّة بالحيلولة.

وقد قال المدائني: أحسن الجواب ما كان حاضرًا مع إصابة المعنى وإيجاز اللفظ وبلوغ الحجة.

وقال أبو سليمان شارحًا لهذا: أمَّا حضور الجواب فِليكون الظفر عند الحاجة، وأما إيجاز اللفظ فِليكون صافيًا من الحشو، وأما بلوغ الحجة فِليكون حسمًا للمعارَضة.

قال: ما أحسن ما وشَّح هذه الفقرة بهذه الشَّذْرة!

وحكى المدائني قال: قال مسلمة بن عبد الملك: ما من شيء يؤتاه العبد بعد الإيمان بالله أحبُّ إليَّ من جوابٍ حاضر، فإن الجواب إذا تُعُقِّب لم يكن له وقع.

وحكى المدائني بإسناده عن عبد الرحمن بن حوشب أن رسول الله ﷺ قال لعمرو بن الأهتم التميمي: أخبرني عن الزِّبْرقان بن بدر، فقال: مطاعٌ في

أدنيه، شديد العارضة، مانعٌ لما وراء ظهره. فقال الزبرقان: يا رسول الله، إنه ليعلم مني أكثر من هذا ولكنه حسدني. فقال عمرو: أما والله يا رسول الله إنه لزَمِر المروءة، ضيق العطن، لئيم الخال، أحمق الوالد، وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخرى، ولقد رضيت فقلت أحسن ما علمت، وسخطت فقلت أسوأ ما علمت. فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحِكَمًا.»

وقال أبو سليمان: السحر بالقول الأعم والرسم المفيد على أربعة أضرب: سحرٌ عقلي وهو ما بدر من الكلام المشتمل على غريب المعنى في أي فن كان، وسحرٌ طبيعي وهو ما يظهر من آثار الطبيعة في العناصر المتهيئة والمواد المستجيبة، وسحرٌ صناعي وهو ما يوجد بخفة الحركات المباشرة وتصريفها في الوجوه الخفية عن الأبصار المحدقة، وسحرٌ إلهي وهو ما يبدو من الأنفس الكريمة الطاهرة باللفظ مرة وبالفعل مرة. وعرض كل واحدٍ من هذه الضروب واسع، وكل حذقٍ ومهارةٍ وبلوغ قاصيةٍ في كل أمر هو سحرٌ وصاحبه ساحرٌ.

وقال المدائني: نظر ثابت بن عبد الله بن الزبير إلى أهل الشام فشتمهم، فقال له سعيد بن عثمان بن عفان: أتشتمهم لأنهم قتلوا أباك؟ فقال: صدقت، ولكن المهاجرين والأنصار قتلوا أباك.

وقال عبد الملك بن مروان لثابت بن عبد الله بن الزبير: أبوك كان أعلم بك حين شتمك. فقال: يا أمير المؤمنين، أتدري لم كان يشتمني؟ إني نهيته أن يُقاتل بأهل مكة وأهل المدينة فإن الله لا ينصره بهما، وقلت له: أما أهل

مكة فأخرجوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأخافوه، ثم جاءوا إلى المدينة فأخرجهم منها وشرَّدهم.

فعرَّض بالحَكم بن أبي العاص وهو جد عبد الملك وكان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نفاه. وأما أهل المدينة فخذلوا عثمان حتى قُتل بينهم، لم يروا أن يدفعوا عنه. فقال له عبد الملك: لحاك الله!

وقال عبدُ الرحمن بن خالد بن الوليد لمعاوية: أما والله لو كنتَ بمكة لعلمتَ. فقال معاوية: كنتُ أكون ابن أبي سفيان ينشق عني الأبطح، وكنتَ أنت ابن خالد منزلك أجياد أعلاه مَدَرَة وأسفله عَذِرة.

وقال المدائني: قال ابن الضحاك بن قيس الفهريه لهشام بن عبد الملك قبل أن يملِك وهو يومئذٍ غلامٌ شاب: يابن الخلائف، لِمَ تطيل شعرك وقميصك؟ قال: أكره أن أكون كما قال الشاعر:

"قصير القميص فاحشٌ عند بيته وشر غراسٍ في قريشٍ مركَّبا"

قال: وهذا الشعر لأبي خالدٍ مروان بن الحكم هجا به الضحاك ابن قيس.

* * *

الليلة الأربعون

وقال مرة أخرى: حدِّثني عن اعتقادك في أبي تمامٍ والبحتري. فكان الجواب: إن هذا الباب مختلفٌ فيه، ولا سبيل إلى رفعه، وقد سبق هذا من الناس في الفرزدق وجريرٍ ومن قبلهما في زهير والنابغة حتى تكلم على ذلك الصدر الأول، مع علو مراتبهم في الدين والعقل والبيان، لكن حدثنا أبو محمد العروضي عن أبي العباس المبرد قال: سألني عبيد الله بن سليمان عن أبي تمام والبحتري، فقلت: أبو تمام يعلو علوًّا رفيعًا، ويسقط سقوطًا قبيحًا، والبحتري أحسن الرجلين نمطًا، وأعذب لفظًا. فقال عبيد الله:

قد كان ذلك ظني فعاد ظني يقينا

فقلت: وهذا أيضًا شعر. فقال: ما علمتُ.

فقال: هذه حكايةٌ مفيدةٌ من هذا العالم المتقدم وحكمٌ يلوح منه الإنصاف، وقد أغنى هذا القول عن خوضٍ كثير.

ودَعْ ذا، من أين دخلت الآفة على أصحاب المذاهب حتى افترقوا هذا الافتراق، وتباينوا هذا التباين، وخرجوا إلى التكفير والتفسيق وإباحة الدم والمال ورد الشهادة وإطلاق اللسان بالجرح وبالقَذْع والتهاجر والتقاطع؟!

فكان الجواب: إن المذاهب فروع الأديان والأديان أصول المذاهب، فإذا ساغ الاختلاف في الأديان وهي الأصول فلم لا يسوغ في المذاهب وهي الفروع؟

فقال: ولا سواء، الأديان اختلفت بالأنبياء وهم أرباب الصدق والوحي الموثوق به والآيات الدالة على الصدق، وليس كذلك المذاهب.

فقيل: هذا صحيح ولا دافع له، ولكن لما كانت المذاهب نتائج الآراء، والآراء ثمرات العقول والعقول منائح الله للعباد، وهذه النتائج مختلفةٌ بالصفاء والكدر، وبالكمال والنقص وبالقلة والكثرة وبالخفاء والوضوح؛ وجب أن يجري الأمر فيها على مناهج الأديان في الاختلاف والافتراق وإن كانت تلك منوطةً بالنبوة. وبعد، فما دام الناس على فطرٍ كثيرةٍ، وعاداتٍ حسنةٍ وقبيحة، ومناشئ محمودةٍ ومذمومة، وملاحظاتٍ قريبةٍ وبعيدة؛ فلا بدَّ من الاختلاف في كل ما يُختار ويُجتنب، ولا يجوز في الحكمة أن يقع الاتفاق فيما جرى مجرى المذاهب والأديان، ألا ترى أن الاتفاق لم يحصل في تفضيل أمة على أمة، ولا في تفضيل بلدٍ على بلد، ولا في تقديم رجلٍ على رجل؟ ولو لم يكن في هذا الأمر إلا التعصب واللجاج والهوى والمحك والذهاب مع السابق إلى النفس، والموافق للمزاج والخفيف على الطباع والمالك للقلب؛ لكان كافيًا بالغًا بالإنسان كل مبلغ.

وشيخنا أبو سليمان يقول كثيرًا: إن الدين موضوعٌ على القبول والتسليم والمبالغة في التعظيم، وليس فيه «لِمَ» و«لا» و«كيف» إلا بقدر ما يؤكد أصله ويشد أزره وينفي عارض السوء عنه، لأن ما زاد على هذا يوهن الأصل بالشك، ويقدح في الفرع بالتهمة.

قال: وهذا لا يخص دينًا دون دين، ولا مقالةً دون مقالة ولا نحلةً دون نحلة، بل هو سارٍ في كل شيء في كل حالٍ في كل زمان، وكل من حاول رفع

هذا فقد حاول رفع الفطرة ونفي الطباع وقلب الأصل، وعكس الأمر، وهذا غير مستطاع ولا ممكن، وقد قيل: «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون.»

وقال لنا القاضي أبو حامد المروَرُّوذي: أنا منذ أربعين سنةً أجتهد مع أصحابنا البصريين في أن أصحح عندهم أن بغداد أطيب من البصرة، وأنا اليوم في كلامي معهم كما كنت في أول كلامي لهم، وكذلك حالهم معي، فهذا هذا. أنظر إلى فضل ومرعوش وهما من سقط الناس وسِفلتهم كيف لهج الناس بهما وبالتعصب لهما حتى صار جميع من ببغداد إما مرعوشيًّا وإما فضليًّا؟

ولقد اجتاز ابن معروف وهو على قضاء القضاة بباب الطاق فتعلق بعض هؤلاء المجَّان بلجام بغلته، وقال: أيها القاضي، عرِّفنا أنت مرعوشي أم فضلي، فتحير وعرف ما تحت هذه الكلمة من السفه والفتنة، وأن التخلص بالجواب الرفيق أجدى عليه من العنف والخرق وإظهار السطوة، فالتفت إلى الحراني فقال: يا أبا القاسم، نحن في محلة من؟ قال: في محلة مرعوش، فقال ابن معروف: كذلك نحن – عافاك الله – من أصحاب محلتنا لا نختار على اختيارهم ولا نتميز فيهم. فقال العَيَّار: امشِ أيها القاضي في ستر الله، مثلك من تعصب للجيران.

فقال الوزير أحسن الله توفيقه: هذا كله تعصبٌ وهوًى وتماحك وتكلفٌ. قيل: هذا وإن كان هكذا فهو داخلٌ فيما عداه من حديث الدين والمذهب والصناعة والبلد.

قال أبو سليمان: ولمصلحةٍ عامةٍ نُهي عن المراء والجدال في الدين على

عادة المتكلمين، الذين يزعمون أنهم ينصرون الدين، وهم في غاية العداوة للإسلام والمسلمين وأبعد الناس من الطمأنينة واليقين.

ثم حدث فقال: اجتمع رجلان أحدهما يقول بقول هشام، والآخر يقول بقول الجواليقي، فقال صاحب الجواليقي لصاحب هشام: صف لي ربك الذي تعبده، فوصفه بأنه لا يد له ولا جارحة ولا آلة ولا لسان، فقال الجواليقي: أيسرك أن يكون لك ولدٌ بهذا الوصف؟! قال: لا، قال: أما تستحي أن تصف ربك بصفةٍ لا ترضاها لولدك؟ فقال صاحب هشام: إنك قد سمعت ما نقول، صف لي أنت ربك، فقال: إنه جعدٌ قطط في أتم القامات وأحسن الصور والقوام. فقال صاحب هشام: أيسرك أن تكون لك جاريةٌ بهذه الصفة تطؤها؟ قال: نعم. قال: أفما تستحي من عبادة من تحب مباضعة مثله؟! وذلك لأن من أحب مباضعته فقد أوقع الشهوة عليه.

فقال: هذا من شؤم الكلام ونكد الجدل، فلو كان هناك دين لكان لا يدور هذا في وهم ولا ينطق به لسان.

وحكى أيضًا أن رجلًا من العجم حج وتعلق بأستار الكعبة فطفق يدعو ويقول: يا من خلق السباع الضارية، والهوام العادية، وسلطها على الناس، وضربهم بالزمانة والعمى والفقر والحاجة، فوثب الناس عليه وسبوه وزجروه وقالوا: ادعُ الله بأسمائه الحسنى. فأظهر لهم الندامة والتقارف فخلوا عنه بعد ما أرادوا الوقيعة به، فرجع وتعلق بأستار الكعبة، وجعل ينادي: يا من لم يخلق السباع الضارية ولا الهوام، ولا سلطها على الناس، ولم يضرب الناس بالأوجاع والأسقام. فوثبوا عليه أيضًا وقالوا له: لا تقل هذا فإن الله خالق

كل شيءٍ، فقال: ما أدري كيف أعمل؟! إن قلتُ: إن الله خالق هذه الأشياء وثبتم عليَّ، وإن قلت: إن الله لم يخلقها وثبتم عليَّ، فقالوا: هذا ينبغي أن تعلمه بقلبك ولا تدعُ الله به.

قال أبو سليمان: وهذا أيضًا من شؤم الكلام وشُبَه المتكلمين الذين يقولون: لا يجوز أن يُعتقد شيءٌ بالتقليد ولا بدَّ من دليل، ثم يدللون ويختلفون ثم يرجعون إلى القول بأن الأدلة متكافئة.

وحكى لنا ابن البقال وكان من دهاة الناس قال: قال ابن الهيثم: جُمع بيني وبين عثمان بن خالد، فقال لي: أحب أن أناظرك في الإمامة. فقلت: إنك لا تناظرني وإنما تشير عليَّ. فقال: ما أفعل ذلك ولا هذا موضع مشورة، وإنما اجتمعنا للمناظرة. فقلت له: فإنا قد أجمعنا على أن أولى الناس بالإمامة أفضلهم، وقد سبقنا القوم الذين يُتنازع في فضلهم، وإنما يُعرف فضلهم بالنقل والخبر، فإن أحببت سلمتُ لك ما ترويه أنت وأهل مذهبك في صاحبك، وتسلم لي ما أرويه أنا وفرقتي في صاحبي، ثم أناظرك في أي الفضائل أعلى وأشرف. قال: لا أريد هذا، وذاك أني أروي مع أصحابي أن صاحبي رجلٌ من المسلمين يصيب ويخطئ، ويعلم ويجهل، وأنت تقول في صاحبك: إنه معصومٌ من الخطأ، عالمٌ بما يحتاج إليه. فكيف أرضى هذه الجملة؟ قلت: فأقبل كلَّ شيء ترويه أنت وأصحابك في صاحبي من حمدٍ أو ذم، وتقبل أنت كل شيء أرويه أنا وأصحابي في صاحبك من حمدٍ أو ذم. قال: هذا أقبح من الأول، وذلك أني وأصحابي نروي أن صاحبك مؤمنٌ خيِّرٌ فاضل، وأنت وأصحابك تروون أن صاحبي كافرٌ منافق، فكيف أقبل هذا منك وأناظرك عليه؟

قال ابن الهيثم: فلم يبق إلا أن أقول: دع قولك وقول أصحابك، واقبل قولي وقول أصحابي. قال: ما هو إلا ذاك. قلت: هذه مشورة وليست مناظرة. قال: صدقت.

وحكى لنا ابن زرعة النصراني قال: قيل للمسيح: ما بال الرجلين يسمعان الحق فيقبله أحدهما ولا يقبله الآخر؟ فقال: مثل ذلك مثل الراعي الذي يصوت بغنمه فتأتيه هذه الشاة بندائه ولا تأتيه هذه.

قال أبو سليمان: هذا جوابٌ مبتور، وليس له سَنن، ولعل الترجمة قد حافت عليه والمعنى انحرف عن الغاية، وليس يجوز أن يكون حال الإنسان كيف كان حالَ الشاة في إجابة الداعي وإبائها، فإن له دواعي وموانع عقليةً وحسية.

فقال الوزير: هذا أيضًا بابٌ قد مضى مستوفًى، ما الذي سمعتَ اليوم؟ فقلتُ: رأيت ابن برمويه في دعوة، وترامى الحديث فقال: رأيت اليوم الوزير شديد العبوس، أهو هكذا أبدًا أم عرَض له هذا على بختي؟ فقال ابن جبلة: لعله كان ذاك لسبب، وإلا فالبِشر غالبٌ على وجهه والبشاشة مألوفةٌ منه. فقال ابن برمويه: ما أحسن ما قال الشاعر:

"أخو البِشر محمودٌ على حسن بشره ولن يَعدم البغضاءَ من كان عابسا"

* * *

رسالتان كتب بهما المؤلف إلى الوزير

أما الرسالة الأولى:

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم حلِّني بالتوفيق وأيدني بالنصرة واقرن منطقي بالسداد، واجعل لي من الوزير وزير الممالك عُقْبى فارجةً من الغُمم، وخاتمةً موصولةً بالنجاح، فإنك على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

كنتُ وصلتُ إلى مجلس الوزير وفزت بالشرف منه وخدمت دولته، وعلاه من صدري بخبيئته ومن فؤادي بمحيضته، وتصرفتُ من الحديث بإذنه في شجونه وفنونه. كل ذلك آملًا في جدوى آخذها وحظوةٍ أحظى بها وزلفى أَمِيس معها، ومَثالةٍ أُحسد عليها. فتقبل ذلك كله ووعد عليه خيرًا ولم يزل أهله، وانقلبتُ إلى أهلي مسرورًا بوجهٍ مسفر ومُحيًّا طلق وطرْفٍ عازم، وأملٍ قد سد ما بين أفق العراق إلى صنعاء اليمن، حتى إذا قلت للنفس: هذا مَعَان الوزير ومَعمره وجنابه ومحضره، فانشرحي مستفتحة وتيمَّني مقترحة واطمئني راضيةً مرضية، لا كدرة الشرب ولا مذعورة السرب، حصلتُ من ذلك الوعد والضمان على بعض فَعَلات الزمان. ولا عجب في ذلك من الزمان فهو بمثله مليء وله فعول. وبقيتُ محمولًا بيني وبين إذكاره قرن الله ساعاته بسعاداته ووصل عز يومه بسعادة غده وغدَه بامتداد يده حيرانَ لا أَرِيش ولا أبرى، ثم رفعتُ ناظري وسدَّدت خاطري، وفصَّلت الحساب لي وعليَّ؛ فوضح العذر المبين المانع من استزادة المستزيدين، وذلك أني رأيت

أعباء الوزارة تئود سره وتُتعب باله، والمملكةَ تفزع وَلْهى عليه وتُلقي بجِرَانها له بين يديه، والدولة تستمده التدبيرَ الثاقب والرأي الصائب، سوى أمورٍ في خلاف ذلك لا يحررها رسم راسم، ولا يقرّرها قسم قاسم ولا يحويها وهم واهم، ولا يفوز بها سهم مساهم، وهو يخطر في حواشي هذه الأحوال، متأبطًا بواهظ الأثقال مفتتحًا عويص الأقفال، سامي الطرف فسيح الصدر بسامًا على العلات، غير مكترثٍ بهاك وهات يتلقّى ما أعيا من ذلك باللَّيِّ، وما أشكل بالإيضاح وما عسر بالتدبير، وما فسد بالإصلاح وما أُرِقَّ بالعتق، وما خُرِق بالرَّتْق، وما خَفِي بالتكشيف، وما بدا بالتصريف، وما أَوِد بالتثقيف، وما لَبَس بالتعريف، حتى أجمع على هواه قاصيها ودانيها، وجرى على مراده خافيها وباديها، واستجاب لأمره أبيُّها ومنقادها، وأتلف بلفظه نادرُها ومعتادُها. فلما تيقنتُ ذلك كله وقتلتُه خبرًا، أمسكت عن إذكاره نفَّس الله مدته سالفَ عهده ومتقدّمِ وعده، عالمًا بأن أسرَّهما مَرْعيٌّ عنده في صدر الكرم، ومكتوبٌ لديه في صحيفة المجد، وثابتٌ قِبَله في ديوان الحُسْنى.

ولكن كان ذلك الامتنان على رغمٍ مني؛ لأني قتلتُ في أثنائه بين جنبيَّ قلبًا مغرور الرجاء ومنزُور العزاء، على عوارض لم تسنَح في خَلَدي، ولم أعقد على شيء منها يدي.

فالحمد لله الذي جعل معاذي إلى الوزير الكريم البَرّ الرحيم، والمنة لله الذي جعلني من عُفاة جوده وناشئة عُرفه، ووارد عِدِّه وقادحي زَنْده، ومقتبِسي نوره ومُصطَلي ناره وحاملي نعمته وطالبي خدمته، وجعل خاصتي وخالصتي من بينهم رواية مناقبه باللسان الأبين، ونشر فضائله بالثناء الأحسن، وذكْر آلائه باللفظ الأفصح، والاحتجاج لسداد آرائه بالمعنى

الأوضح. فلا زال الوزير وزير الممالك ممدوحًا في أطوار الأرض على ألسنة الأدباء والحكماء، وفي نوادي الرؤساء والعظماء، ما آب آئب وغابَ غائب بمنه ولطفه.

قد ناديتُ الوزير حيًّا سامعًا وخيرًا جامعًا، وهززتُ منه صارمًا قاطعًا وشهابًا ساطعًا، واستسقيتُ من كرَمه سحابًا هاطلًا ونُقاخًا سائلًا، وأسأله أن يجنِّبني مرارة الخيبة وحسرة الإخفاق وعذاب التسويف، فقد تلطَّفت بالسحر الحلال والعذب الزلال جهد المقل المحتال، وهو أولى بمجده في تدبير عبده إن شاء الله تعالى.

هذا آخر الرسالة الأولى.

وحضر وصولها إليه بهرام لعنه الله وتكلم بما يشبه نذالته وخسته ونَتْن نيته، فما كنت آمَنه، وما أشد إشفاقي على هذا الوزير الخطير من شؤم ناصية بهرام وغل صدره، وقلة نصيحته ولؤم طبعه وخُبْث أصله وسقوط فرعه، ودمامة منظره ولآمة مخبره، حرس الله العباد من شره، وطهر البلاد من عُرِّه وضره!

* * *

وأما الرسالة الثانية:

فهي التي كانت في هذه الأيام بعد استئذاني إياه في المخاطبة بالكاف، حتى يجري الكلام على سنن الاسترسال، ولا يُعثر في طريق الكتابة بما يزاحَم عليه من اللفظ واللفظ، وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الوزير، جعل الله أقدار دهرك جاريةً على تحكم آمالك، ووصل توفيقه بمبالغ مرادك في أقوالك وأفعالك، ومكَّنك من نواصي أعدائك، وثبَّت أواخِيَ دولتك على ما في نفوس أوليائك.

يجب على كل من آتاه الله رأيًا ثاقبًا، ونصحًا حاضرًا وتنبهًا نافعًا، أن يخدمك متحريًا لرسوخ دعائم المملكة بسياستك وريادتك، قاضيًا بذلك حق الله عليه في تقويتك وحياطتك. وإني أرى على بابك جماعةً ليست بالكثيرة – ولعلها دون العشرة – يؤثِرون لقاءك والوصول إليك لما تُجِنُّ صدورهم من النصائح النافعة، والبلاغات المجدية والدلالات المفيدة، ويرون أنهم إذا أُهِّلوا لذلك فقد قضوا حقك، وأدوا ما وجب عليهم من حرمتك، وبلغوا بذلك مرادهم من تفضلك واصطناعك وتقديمك وتكريمك، والحجاب قد حال بينهم وبينك، ولكل منهم وسيلةٌ شافعةٌ وخدمةٌ للخيرات جامعةٌ، منهم وهو أهل الوفاء ذوو كفايةٍ وأمانةٍ ونباهةٍ ولباقة، ومنهم من يصلح للعمل الجليل ولرتق الفتق العظيم، ومنهم من يمتِع إذا نادم ويشكر إذا اصطنع ويبذل المجهود إذا رُفِع، ومنهم من ينظم الدر إذا مدح ويُضحك الثغر إذا مزح، ومنهم من قعد به الدهر لسنه العالية وجلابيبه البالية، فهو موضع الأجر

المذخور وناطقٌ بالشكر المنظوم والمنثور، ومنهم طائفةٌ أخرى قد عكفوا في بيوتهم على ما يعنيهم من أحوال أنفسهم، في تزجية عيشهم وعمارة آخرتهم، وهم مع ذلك من وراء خصاصةٍ مُرة ومؤنٍ غليظة وحاجاتٍ متوالية، ولهم العلم والحكمة والبيان والتجربة، ولو وثقوا بأنهم إذا عَرَضوا أنفسهم عليك، وجهَّزوا ما معهم من الأدب والفضل إليك حظُوا منك واعتزُّوا بك، لَحَضَروا بابك وجَشِموا المشقة إليك. لكن اليأس قد غلب عليهم وضعفت مُنَّتهم، وعُكس أملهم ورأوا أن سفَّ التراب أخفُّ من الوقوف على الأبواب إذا دنوْا منها دُفعوا عنها. فلو لحظْتَ هؤلاء كلَّهم بفضلك وأدنيتَهم بسعة ذَرْعك وكرم خِيمِك، وأصغيت إلى مقالتهم بسمعك وقابلتَهم بملء عينك؛ كان في ذلك بقاءٌ للنعمة عليك وصيتٌ فاشٍ بذكرك، وثوابٌ مؤجَّلٌ في صحيفتك وثناءٌ معجَّلٌ عند قريبك وبعيدك. والأيام معروفةٌ بالتقلب والليالي ماخضةٌ بما يتعجب منه ذو اللب والمجدود مَن جُدَّ في جده، أعني من كان جَدُّه في الدنيا موصولًا بحظه من الآخرة، ولأنْ يُوكَل العاقل بالاعتبار بغيره خيرٌ من أن يُوكَل غيرُه بالاعتبار به.

أيها الوزير، اصطناع الرجال صناعةٌ قائمةٌ برأسها، قلَّ من يفي بربها أو يتأتى لها أو يعرف حلاوتها، وهي غير الكتابة التي تتعلق بالبلاغة والحساب.

وسمعتُ ابن سُورين يقول: آخر من شاهدنا ممن عرف الاصطناع واستحلى الصنائع، وارتاح للذكر الطيب واهتزَّ للمديح، وطرب على نغمة السائل واغتنم خَلَّة المحتاج وانتهب الكرم انتهابًا، والتهب في عشق الثناء التهابًا؛ أبو محمد المهلَّبي، فإنه قدَّم قومًا ونوَّه بهم ونبه على فضلهم وأحوج الناظرين في أمر المُلك إليهم وإلى كفايتهم، منهم أبو الفضل العباس بن

الحسين، ومنهم ابن معروف القاضي، ومنهم أبو إسحاق الصابئ وأبو الخطاب الصابئ، [ومنهم أحمد الطويل، ومنهم أبو العلاء صاعد، ومنهم أبو أحمد ابن الهيثم، وابن حفصٍ صاحب الديوان]، وفلان وفلان، هؤلاء إلى غير هؤلاء كأبي تمام الزينبي، وأبي بكر الزهري، وابن قريعة، وأبي حامد المرْورُّوذي، وأبي سعيد السيرافي، وابن دَرَسْتويه، وابن البقَّال، والسري، ومن لا يُحصى كثرةً من التجار والعُدول.

وقال لي ابن سورين: كان أبو محمد يطرب على اصطناع الرجال كما يطرب سامع الغناء على الشبابير، ويرتاح كما يرتاح مدير الكأس على العشائر. وقال عنه إنه قال: والله لأكونن في دولة الديلم أول من يُذكر، إن فاتني أن كنتُ في دولة بني العباس آخر من يُذكر.

فلولا أنك أدام الله دولتك أذنتَ لي أن أكتب إليك كلَّ ما هجس في النفس، وطلع به الرأي مما فيه مردٌّ على ما أنت فيه من هذا الثقل الباهظ، وتنبيهٌ على ما تباشره بكاهلك الضخم؛ لم يكن خطري يبلغ مواجهتك بلفظٍ يثقل، وإشارةٍ تغلظ، وكنايةٍ تخدش، لكنك والله يأخذ بيدك، ويَقْرن الصنعَ الجميل بظاهرك وباطنك، قد رخَّصت لي في ذلك، وخصصتني به من بين غاشية بابك وخدم دولتك، فلذلك أقول ما أقول معتمدًا على حسن تقبلك، وجميل تكفُّلك ومنتظَر تفضلك. وليس في أبواب السياسة شيءٌ أجدى وأنفع وأنفى للفساد وأقمع من الاعتبار الموقظ للنفس، الباعث على أخذ الحزم وتجريد العزم، فإن الوِكال والهُوَيْنا قلَّما يفضيان بصاحبهما إلى درْك مأمول ونيل مراد وإصابة متمنًّى. وقد قال رجلٌ كبير الحكمة معروف الحنكة: المعتبَر كثير والمعتبِر قليل. وصدق هذا الرجل الصالح وهو الحسن البصري.

لو اعتبر من تأخر بمن تقدم لم يكن من يتحسر في الناس ويندم، ولكن الله بنى هذه الدار على أن يكون أهلها بين يقظةٍ ونوم، وبين فرحٍ وترح، وبين حيطةٍ وورطة، وبين حزمٍ وغفلة، وبين نزاعٍ وسَلْوة، لكن الآخذ بالحزم وإن جرى عليه مكروه أعذر عند نفسه وعند كل من كان في مَسْكه، من المُلْقي بيده والمتدلِّي بغروره والساعي في ثُبوره. وما وهب الله العقل لأحدٍ إلا وقد عرَّضه للنجاة، ولا حلَّاه بالعلم إلا وقد دعاه إلى العمل بشرائطه، ولا هداه الطريقين (أعني الغَيَّ والرُّشد) إلا ليزحف إلى أحدهما بحسن الاختيار.

هذا بالأمس أبو الفضل العباس بن الحسين الوزير وهو في وزارته وبسطة أمره ونهيه قيل له ذات يوم: هذا التركي ساسنكر تفيأ بظله، واعتصم بحبله واستَسق بسجْله، وارتو من سؤره، ولا يبلغه عنك ما يوحشه منك ويُجفيه عليك. وقد قيل:

اسجُدْ لقِرد السوء في زمانه وإذا لم تقدر على قطع يدٍ جائرةٍ فقبِّلها مُتْهِمةً مُنجدةً غائرة. فلم يفعل حتى وجد أعداؤه طريقًا إليه فسلكوه وأوقعوه.

ثم قيل له في الوزارة الثانية: قد ذُقْت مرارة النكبة وتحرقتَ بنار الشماتة، وتأرَّقتَ على فرَطات العجز والفَسَالة، وقد كان من ذلك كله ما كان، ودار لك بما تمنيت الزمان، فانظر إلى أين تضع الآن قدمك، وبأي شيء تدير لسانك وقلمك، فإن مخلِّصك من ورطتك بالمرصاد، وقد وعدتَ من نفسك إن أعاد الله يدك إلى البسطة، وردَّ حالك إلى السرور والغبطة؛ أنك تُجْمل المعاملة، وتنسى المقابلة، وتَلقَى وليَّك وعدوك بالإحسان إلى هذا والكفِّ

عن هذا، حتى يتساويا بنظرك، ويتعبَّدا لك بتفضلك.

فكان من جوابه ما دل على عتوِّه وثباته؛ لأنه قال: أما سمعتم الله تعالى حيث يقول: وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ؟

وقال لي القومسي ولم يعلم ما في فحوى هذا الكلام: ما ذاك؟ قلتُ: فحواه ولو عادوا إلى ما نُهوا عنه لعدنا إلى مقابلتهم بما استحقوا عليه.

وصدق ما قال الله عز وجل، ما لبث ذلك الإنسانُ بعد هذا الكلام إلا قليلًا حتى أورده ولم يصدره، وأعثره ولم يُنْعشه، وسُلِّم إلى عدوه حتى استل روحه من بين جنبيه شافيًا به ومُشْتفيًا منه، وكان عاقبة أمره خُسْرًا، ولو اتقى الله لكان آخر أمره يسرًا. والله المستعان.

وهذا بعده محمد بن بقية طغى وبغى، واقتحم ظلمات الظلم والعسْف، وطار بجناح اللهو والعزف والشرب والقصف، وملَّ نعمة الله عليه وضلَّ بين إمهال الله وإملائه، فحاق به ما ذهبت عليه نفسه وماله وخُرِّب بيته وافتَضَح أهله، وكيف كان يسلم، أم كيف كان ينجو وقد قَتَل ابنَ السراج بلا ذنب، والجَرْجرائيَّ بلا حجة، وضرب ابن معروفٍ بالسياط وأبا القاسم أخًا لأبي محمد القاضي وشهَّره على جملٍ في الجانب الشرقي؟!

والتشفي حلو العلانية ولكنه مُرُّ العاقبة، وكأن الحفيظة إنما خُلقت لتُعتقد، والحقد إنما وُجد ليُبلَغ به ما يسر الشيطان.

وكأن العفو حرام والكظم محظور والمكافأة مأمورٌ بها.

وهذا بالأمس علي بن محمد ذو الكفايتين اغترَّ بشبابه، ولها عن الحزم

والأخذ به فيما كان أولى به، وظن أن كفايته تحفظه ونسبَه من أبيه يكنفه، وبراءتَه تحتجُّ له وذنوبه الصغيرة تغتفر، لبلائه المذكور وغَنائه المشهور، ومشى فعثر وراب فخثر، والأول يقول:

من سابق الدهر كبا كبوةً لم يستَقلْها آخر الدهرِ
فاخطُ مع الدهر إذا ما خطا واجرِ مع الدهر كما يجري

وقال لي الخليل وكان لطيف المحل عنده لما كان يرى من اختصاص أبيه له، ولما يظهر من فضله عنده: قلت له يومًا: يا هذا، في أي شيء أنت؟ وبأي شيء تَعَلَّل؟ وقد شُحِذت المواسي وحُدِّدت الأنياب وفُتلت المرائر ونُصبت الفخاخ، والعيون محدِّقةٌ نحو القطيعة والأعناق صورٌ إلى الفظيعة، وأنت لاهٍ ساهٍ عما يراد بك بعد، يسبيك هذا المزرفن وهذا المُرْخي وهذا المعرَّض وهذا الحليق، وهذا النتيف وهذا المعقرَب الصُّدغ وهذا المصفوف الطُّرَّة، وبالكاس والطاس والغناء والقصف، والناي والعود، والصبوح والغبوق والشراب المروَّق العتيق، والله ما أدري ما أصنع إن سكتُّ عنك كمدتُ، وإن نصحتُك خفتُ منك، ونعوذ بالله من اشتباه الرأي واشتباك الأمر وقلة الاحتراس، والإعراض عما يجري من أفواه الناس!

يا هذا، سوء الاستمساك خيرٌ من حسن الصَّرْعة، وتلقِّي الأمر بالحزم والشهامة أولى من استدباره بالحسرة والندامة، ومن لا تجربة له يقتبس ممن له تجربة، فإذا نقب الخُفُّ دَمِي الأظل. فقال: قد فرغ الله مما هو كائن، وإذا جاء أجلهم لا يسْتَأْخرون ساعة ولا يستَقدِمون.

قال: قلتُ له: ما أطلعك الله على كائنات الأمور ولا أعلمك بعواقب الأحوال، وإنما عرَّفك حظك بعد أن وفَّر عقلك، وأحضرك استطاعتك،

وأوضح لقلبك ما عليك ولك، حتى يستشف ويستكشف، وملَّكك النواصي حتى تمُنَّ وترسل، وما طالبك إلا بعد أن أزاح علَّتك، ولا عاقبك إلا بعد أن أنذرك وأنظرك، وبمثل هذا تطالب أنت من هو دونك من خَدَمك وحشمك، وأوليائك وأعدائك، وهذا الذي أعذُلك عليه هو الذي به تعذُل غيرك وتراه ضالًّا في مسلكه، متعرِّضًا لمهلكه.

فقال: أيظلمني وليُّ نعمتي صُراحًا بلا ذنب، ويجتاحني بلا جريمة ويَثْلم دولته بلا حجة؟

قلتُ: الله يقيك ويكفيك، نراك بلا ذنب ونجدك بريئًا من كل عيب، وغيرك لا يراك بهذه العين ولا يحكم لك بهذا الحكم، فإن كنت ترى فرصةً فانتهزها وإن كنت تحلم بغصةٍ فاحترز منها، فأبواب النجاة مفتَّحة وطرق الأمان متوجهة، والأخذ بالاحتياط واجب، قد قرب الشاخص من هذا المكان، والقيامة قد قامت بالإرجاف، والطيَرَة قشعريرة النفس، كما أن القشعريرة طِيَرَة البدن، والاسترسال كلال الحس، والفأل لسان الزمان وعنوان الحِدْثان، ولا يقع في الأفواه إلا ما يوجب الحذر ويبعث على الرأي والنظر واستقراء الأثر والخبر.

قال: أما أنا بعد التوكل على الله فقد استظهرتُ بمحمد بن إبراهيم صاحب نيسابور، وبفخر الدولة وهو بهمذان على ثلاثة أيام، وبعز الدولة وهو بمدينة السلام، ومتى حَرَب حارِب وراب رائب أويتُ إلى واحدٍ من هؤلاء.

قال: قلت: ها هنا ما هو أسهل من هذا وإن كان أهول، وأنجى وإن كان أشجى، وأقرب وإن كان أعزب.

قال: ما هو؟ فرِّج عني واهدني.

قلت: لما يدخل هذا الوارد الدار ويدنو من طرف البساط تُنْدر رأسه عن كاهله وتُلقي شِلوه في مزبلة، فإن الهيبة تقع والنائرة تخبو والعَجَب يغمر، والظِّنَّة تزول والصدر يَشتفي والاعتذار ينتفي. ويُكتب إلى موفده بأن الرأي أوجب هذا الفعل، لأنه غلب على الظن أنه وافى لكيد يُوصِله إليَّ، وبلاءٍ يُفرغه عليَّ، فأزلتُ هذا الظنَّ باليقين ودفعت الشبهة بالجلاء، واستخلصتُ النور من الظلام. ولأن تُبعد ساقطًا من خدَمك يسوء ظني به من جهتك ويقدح في طاعتي لك، [ويُضرم فيَّ نار التهمة بيني وبينك؛ خيرٌ لي في نصيحتي لدولتك، وخيرٌ لك] في بقائي على أمرك ونهيك، من أن يلتاث ضميري في سياسة دولتك، وتحُول نيتي عما عهدتَ من القيام بحق جندك ورعيتك، وحفظ قاصيتك ودانيتك.

فقال: هذا أعظم، والله المستعان.

وليتني أصبت بهذا الرأي امرأً علا عقله فيقبله ببيان أو يرده ببرهان، فكان يقوى أو يضعف، ويقدم عليه أو يحجم عنه، فإن المبرَم أقوى من السحيل والسمين أحمد من النحيل، ثم كان ما كان. وكان مشايخ العراق والجبل يرون ما حدث بذلك الفتى أمرًا فَرِيًّا وظلمًا عبقريًّا.

وحدثني القومسي أنه لم يتقدم بذلك أمر ولا سبق به إذن، ولكن لما حدث ما حدث وقع عنه إمساك وسُترت الكراهية والإنكار.

* * *

وللأمور أيها الوزير ظهورٌ وبطون وهوادٍ وأعجاز وأوائل وأواخر، وليس

على الإنسان أن يدرك النجاح في العواقب، وإنما عليه أن يتحرَّز في المبادئ، ولهذا قال القائل:

"لأمرٍ عليهم أن تتم صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه"

وقال سليمان بن عبد الملك أو غيره من أهل بيته: ما لمتُ نفسي على فوت أمرٍ بدأتُه بحزم، ولا حمدتها على درك أمرٍ بدأته بعجز.

ها هنا ناسٌ إذا تلاقوا ينفُث بعضهم إلى بعض بما هو صريح وكناية، ويحتاج الأمر إلى ابن يوسف، ويستملي الخبيث من الجوقال في هذه الليلة: ما رأيتُ من يفي بإحصاءالس فوق مَشْرَعة مكان الروايا.

وليس يصح كل ما يقال فيُروى على وجهه، وليس يخفى أيضًا كلُّ ما يجري فيمسك عنه، والأمور مَرِجة والصدور حرجة، والاحتراس واجب والنصح مقبول والرأي مشترك، والثقة بالله من اللوازم على من عرفه وآمن به، وليس من الله عز وجل بدٌّ على كل حال.

والله أسأل الدفاع عنك والوقاية لك في مُصْبحك ومُمْساك، وفي مبيتك ومقيلك وشهادتك وغيبتك، ولذوي مليحا في هذا الباب نفخٌ وإيقاد وتناقلٌ وائتمار ومسألةٌ وجواب.

وعند الشيخ أبي الوفاء من هذا الحديث ومن غيره مما يتصل به من ناحية ابن اليزيدي ما يجب أن يُصاخ له بالأذن الواعية، ويقابَل بالنفس الراعية، ويداوَى بالدواء الناجع، وتحسم مادته من الأصل، فإن الفساد إذا زال حصل مكانه الصلاح. وليس بعد المرض إلا الإفراق ولا بعد النزع إلا الإغراق.

إلى ها هنا انتهى نَفَسي بالنصح وإن كانت شفقتي تتجاوزه وحرصي يستعلي عليه، لكني خادم وكما يجب عليَّ أن أخدم بِنِيَّات الصدر فينبغي أن ألزم الحد بحسن الأدب.

والله إني لَوَادٌّ مخلصٌ وعبدٌ طائع، ورجائي اليوم أقوى من رجائي أمس، وأملي غدًا أبسط من أملي اليوم، أشكو إليك الأرق بالليل فكرًا فيما يقال وتحفظًا مما يُنال، وتوهمًا لما لا يكون إن كان، وشر العدا الذين يتمنَّوْن لأولي نعمتهم الردى ويبيِّتون النكائث، ويكسرون الأجفان ويتخازرون بالأعين، ويتجاهرون بالأذى إذا تلاقَوا ويتهامسون بالألسن إذا تدانوا، والله يصرع جدودهم ويُضرع خدودهم بين يديك. وهذه الرقة مني والحفاوة وهذه الرِّعشة والقلق، وهذا التقبُّع والتفزُّع كله، لأني ما رأيت مثلك ولا شاهدت شبهك، كرَم خِيم ولين عريكة وجودَ بنان، وحضور بشر وتهلل وجه وحسن وعد، وقرب إنجاز وبذل مال وحبَّ حكمةٍ.

قد شاهدتُ ناسًا في السفر والحضر، صغارًا وكبارًا وأوساطًا، فما شاهدت من يدين بالمجد ويتحلى بالجود، ويرتدي بالعفو ويتأزَّر بالحلم، ويُعْطِي بالجُزاف ويفرح بالأضياف، ويصل الإسعافَ بالإسعاف، والإتحافَ بالإتحاف؛ غيرك.

والله إنك لتهب الدرهم والدينار وكأنك غضبان عليهما، وتُطْعم الصادر والوارد كأن الله قد استخلفك على رزقهما. ثم تتجاوز الذهبَ والفضة إلى الثياب العزيزة، والخلع النفيسة والخيل العتاق والمراكب الثقال والغلمان والجواري، حتى الكتب والدفاتر وما يَضنُّ به كلُّ جواد. وما هذا من سجايا

البشر إلا أن يكون فاعلُ هذا نبيًّا صادقًا، ووليًّا لله مُجتبى، فإن الله قد أمَّن هذا الصنف من الفقر، ورفع من قلوبهم عز المال، وهوَّن عليهم الإفراج عن كل مُنْفِس، ياقوتًا كان أو دُرًّا، ذهبًا كان أو فضة؛ كفاك الله عين الحاسدين ووقاك كيد المفسدين، الذين أنعمت عليهم بالأمس على رءوس الأشهاد، وكانوا كحصًى فجعلتَهم كالأطواد، وهم يكفرون أياديك ويوالون أعاديك، ويتمنوْن لك ما أرجو أن الله يعصبه برءوسهم، وينزله على أرواحهم ويذيقهم وبال أمرهم، ويجعلهم عبرةً لكل من يراهم ويسمع بهم. كان الله لك ومعك وحافظك وناصرك!

أطلتُ الحديث تلذذًا بمواجهتك، ووصلته خدمةً لدولتك، وكررته توقعًا لحسن موقعه عندك، وأعدته وأبديته طلبًا للمكانة في نفسك.

وأرجو إن شاء الله ألا أُحرم هبَّة من ريحك، ونسيمًا من سحرك وخِيرةً بنظرك. لم أُوفق في هذه الكلمة الأخيرة، والله ما يمر بي يأسٌ من إنعامك فأقوِّيه بالرجاء، ولا يعتريني وهمٌ في الخيبة لديك فأتلافاه بالأمل، إنما قُصارى أمنيتي إذا حُكِّمت أن أُعْطَى فيك سؤلي بالبقاء المديد، والأمر الرشيد، والعدو الصريع، والولي الرفيع، والدولة المستتبة، والأحوال المستحبة، والآمال المبلوغة والأماني المدركة، مع الأمر والنهي النافذين بين أهل الخافقين. والله يبلغني ذلك بطَوْلِه ومنّه!

وآخر ما أقول أيها الوزير: مُرْ بالصدقات، فإنها مجلبة السلامات والكرامات، مدفعةٌ للمكاره والآفات. واهجر الشراب وأدم النظر في المصحف، وافزع إلى الله في الاستخارة وإلى الثقات بالاستشارة، ولا تبخل

على نفسك برأي غيرك وإن كان خاملًا في نفسك قليلًا في عينك، فإن الرأي كالدرة التي ربما وُجدت في الطريق وفي المزبلة، وقل من فزع إلى الله بالتوكل عليه وإلى الصديق بالإسعاد منه إلا أراه الله النجاح في مسألته والقضاء لحاجته. والسلام.

فقال لي الوزير بعدما قرأ الرسالة: يا أبا مزْيَد، بيَّضتُها وعجبتُ من تشقيق القول فيها ومن لطف إيرادك لها ومن بِلَّة ريقك بها.

والله يحقق ما نأمله له ونرجوه لأنفسنا، وينحسر عنَّا هذا الضباب الذي ركد علينا، ويزول الغيم الذي استعرض في أمرنا، وعلى الله توكُّلنا، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ.

* * *

رسالة في شكوى البؤس ورجاء المعونة

وجَّه بها المؤلف إلى الشيخ أبي الوفاء المهندس الذي كتب له المؤلف هذا الكتاب. وختم كتابه بها:

أيها الشيخ، سلمك الله بالصنع الجميل وحقق لك وفيك وبك غاية المأمول!

هذا آخر الحديث وختمتُه بالرسالتين، ويتقرر جميع ما جرى ودار على وجهه، إلا ما لممت به شعثًا وزينت به لفظًا وزيَّدتُ منقوصًا، ولم أظلم معنى بالتحريف ولا ملتُ فيه إلى التحوير، وأرجو أن يبيض وجهي عندك بالرضا عني، فقد كاد وعدك في عنايتك يأتي عليَّ، وأنا أسال الله أن يحفظ عنايتك

عليَّ كسابق اهتمامك بأمري حتى أملك بهما ما وعدتنيه من تكرمة هذا الوزير الذي قد أشبع كل جائع، وكسا كلَّ عارٍ وتألف كل شاردٍ وأحسن إلى كل مسيء، ونوه بكل خامل ونفَّق كل هزيل وأعز كل ذليل، ولم يبقَ في هذه الجماعة على فقره وبؤسه ومُره ويأسه غيري، مع خدمتي السالفة والآنفة، وبذلي كل مجهودٍ ونسخي كل عويص وقيامي بكل صعب، والأمور مقدرة والحظوظ أقسام والكدح لا يأتي بغير ما في اللوح.

فصل

خَلِّصني أيها الرجل من التكفف، أنقذني من لُبْس الفقر، أطلقني من قيد الضر، اشترني بالإحسان، اعتَبِدني بالشكر، استعمل لساني بفنون المدح، اكفني مئونة الغداء والعشاء.

إلى متى الكسيرة اليابسة والبُقَيلة الذاوية، والقميص المرقَّع وباقلَّى درب الحاجب، وسَذاب درب الروَّاسين؟

إلى متى التأدم بالخبز والزيتون؟ قد والله بُحَّ الحلق، وتغير الخُلْق، الله الله في أمري! اجبُرني فإنني مكسور، اسقني فإنني صدٍ، أغثني فإنني ملهوف، شهِّرني فإنني غُفْل، حلِّني فإنني عاطل.

قد أذلَّني السفر من بلدٍ إلى بلد وخذلني الوقوف على بابٍ باب، ونكرني العارف بي وتباعد عني القريب مني.

أغرَّك مسكويه حين قال لك: قد لقيتُ أبا حيان، وقد أخرجتُه مع صاحب البريد إلى قَرْمِيسين؟! والله ثم وحياتِك التي هي حياتي، ما انقلبتُ من ذلك بنفقة شهر، واللهُ نظر لي بالعود، فإن الأراجيف اتصلت والأرض

اقشعرت والنفوس استوحشت، وتشبَّه كل ثعلبٍ بأسد وفتَل كل إنسانٍ لعدوه حبلًا من مسد.

أيها الكريم، ارحم، والله ما يكفيني ما يصل إليَّ في كل شهرٍ من هذا الرزق المقتَّر الذي يرجع بعد التقتير والتيسير إلى أربعين درهمًا مع هذه المئونة الغليظة، والسفر الشاق، والأبواب المحجبة والوجوه المقطبة، والأيدي المسمَّرة والنفوس الضيقة والأخلاق الدنيئة.

أيها السيد، أقصر تأميلي، ارعْ ذمام الملح بيني وبينك، وتذكر العهد في صحبتي، طالبْ نفسك بما يقطع حجتي، دعني من التعليل الذي لا مرد له والتسويف الذي لا آخر معه.

ذكِّر الوزيرَ أمري وكرِّر على أذنه ذكري، وأملِ عليه سورةً من شكري وابعثه على الإحسان إليَّ.

افتح عليه بابًا يُغري الراغب في اصطناع المعروف لا يستغني عن المرغب، والفاعل للخير لا يستوحش من الباعث عليه.

أنفق جاهك فإنه بحمد الله عريض، وإذا جُدتَ بالمال فجد أيضًا بالجاه، فإنهما أخوان.

سرِّحني رسولًا إلى صاحب البطائح أو إلى أبي السؤْل الكردي أو إلى غيره ممن هو في الجبال، هذا إن لم تؤهلني برسالةٍ إلى سعدٍ المعالِمي بأطراف الشام، وإلى البصرة، فإني أبلغ في تحمل ما أحمل وأداء ما أؤدي وتزيين ما أزيِّن؛ حدًّا أملك به الحمد، وأُعرف فيه بالنصيحة وأستوفي فيه على الغاية. دع هذا ودع لي ألف درهم، فإني أتَّخذ رأس مال وأشارك بقال المحلة في درب

الحاجب، ولا أقل من ذا، تقدَّم إلى كسج البقال حتى يستعين بي لأبيع الدفاتر. قلتَ: الوزيرُ مشغول. فما أصنع به إذا فرغ، فالشاعر يقول:

"تناط بك الآمال ما اتصل الشغل"

قد والله نسيت صدر هذا البيت، وما بال غيري ينوّلِه ويموّلِه مع شغله وأُحرم أنا؟! أنا كما قال الشاعر:

وبرقٌ أضـاء الأرض شـرقًا ومغربًا   وموضـع رجلي منه أسـود مظلمُ

والله إن الوزير مع أشغاله المتصلة وأثقاله الباهظة، وفكره المفضوض ورأيه المشترك؛ لكريمٌ ماجد ومفضلٌ محسن، يرعى القليل من الحرمة، ويعطي الجزيل من النعمة، ويحافظ على اليسير من الذمام ويتقبل مذاهب الكرام، ويتلذذ بالثناء إذا سمع، ويتعرض للشكر من كل منتجِع، ويزرع الخير ويحصد الأجر ويواظب على كسب المجد، ويثابر على اجتلاب الحمد وينخدع للسائل، ويتهلل في وجه الآمل ولا يتبوأ من الفضائل إلا في ذراها، رحيم بكل غادٍ ورائح ولكل صالحٍ وطالح.

وأنا الجار القديم والعبد الشاكر والصاحب المخبور، ولكنك مقبلٌ كالُمعرض ومقدِّمٌ كالمؤخِّر وموقدٌ كالمُخمد، تدنيني إلى حظي بشمالك وتجذبني عن نيله بيمينك، وتغدِّيني بوعدٍ كالعسل وتعشيني بيأس كالحنظل، «ومن كان عتبه علي مظنة عيبك، فليس ينبغي أن يكون تقصيره على تيقنه بنصرك.»

نعم، عتبتُ فأوجعت وعرفت البراءة فهلَّا نفعت! والله ما أدري ما أقول، إن شكرتك على ظاهرك الصحيح لذعتُك لباطنك السقيم، وإن

حمدتك على أولك الجميل أفسدت لآخرك الذي ليس بجميل.

قد أطلت ولكن ما شُفيت، ونهلت وعللت ولكن ما رَوِيت.

وآخر ما أقول: افعل ما ترى واصنع ما تستحسن وابلغ ما تهوى، فليس والله منك بدٌّ ولا عنك غنى. والصبر عليك أهون من الصبر عنك؛ لأن الصبر عنك مقرونٌ باليأس، والصبرُ عليك ربما يؤدي إلى رفع هذا الوسواس. والسلام لأهل السلام.

الفهرس

تقديم ٥

الجزء الأول ١٤

الليلة الأولى ١٥

الليلة الثانية ١٨

الليلة الثالثة ٢٠

الليلة الرابعة ٢٤

الليلة الخامسة ٢٧

الليلة السادسة ٣٠

الليلة السابعة ٣٧

الليلة الثامنة ٤٠

الليلة التاسعة ٤٣

الليلة العاشرة ٤٧

الليلة الحادية عشرة ٥٠

الجزء الثاني ٥٥

الليلة السابعة عشرة ٥٦

الليلة الثامنة عشرة ٦٠

الليلة التاسعة عشرة ٦٢

الليلة العشرون ٦٤

الليلة الحادية والعشرون ٦٧

الليلة الثانية والعشرون ٦٩
الليلة الثالثة والعشرون ٧٠
الليلة الرابعة والعشرون ٧٢
الليلة الخامسة والعشرون ٧٥
الليلة السادسة والعشرون ٧٧
الليلة السابعة العشرون ٧٩
الليلة الثامنة والعشرون ٨٢
الجزء الثالث ٨٣
الليلة التاسعة والعشرون ٨٤
الليلة الثلاثون ٨٦
الليلة الواحدة والثلاثون ٨٨
الليلة الثانية والثلاثون ٩٠
الليلة الثالثة والثلاثون ٩٣
الليلة الرابعة والثلاثون ٩٥
الليلة الخامسة والثلاثون ٩٨
الليلة السادسة والثلاثون ١٠١
الليلة السابعة والثلاثون ١٠٣
الليلة الثامنة والثلاثون ١١٢
الليلة التاسعة والثلاثون ١١٥
الليلة الأربعون ١١٨
رسالتان كتب بهما المؤلف إلى الوزير ١٢٤